http://nj180degree.com

إمـيلي نصر الله

أسود و أبيض

المكتبة العربية
www.tipsclub.net
Amly

مكتبة الدار العربية للكتاب

http://nj180degree.com

إملي نصر الله

أسود وأبيض

مجموعة قصص

http://nj180degree.com

«الإسكيمو» (١)

«الطعام أوّلاً، بعده يسعى الانسان الى بقية الحاجات»، هكذا عاش «الإنويت» ثلاثين الف سنة، على حافة العالم، في القطب الشمالي، حيث يبلغ عدوان الطبيعة اشدّه، لكنهم واجهوا قسوتها بالرحمة واللين، واحترموها الى درجة العبادة: «الطبيعة أُمُّنا وإن قست»، هكذا يعتقدون، «هي المنبت والمثوى، وعلينا ان نُعيدها، حين نرحل، مثلما تسلّمناها، نقية، طاهرة...»

(من كتابة الرحّالة الأوائل)

أقبضُ على اللحظة، اخشى ان تُفلت من وجداني، أُطوّق المشهد بنظري، قبل ان يتوارى خلف الضباب.

أُسجل على صفحة الذاكرة: ان ما اراه حقيقي، حقيقي، وليس حلما خُرافيا، من بعض احلام الطفولة.

انا، هنا، واقفة على حافة الكرة الارضية، عند اقصى امتداد لها شمالا.

انا في ارض من سمّوهم «إسكيمو» واليوم نفضوا عنهم الاسم المستعار، واستعادوا اسمهم الاصلي: «إنويت».

* * *

الجواب: نعم

بذلك الاختصار الكلي وافقتُ على الدعوة، من دون ان أُفكر، او احسب الحسابات، ثم عدت اقرأ الرسالة من جديد:

«انتِ مدعوّة لزيارة القطب الشمالي، وبالتحديد، جزيرة «بافين»، آخر الحدود في شمال كندا، وذلك في سياق دعوة لعدد من كتّاب العالم، للقاء غير عادي مع جماعة «الإنويت» والتعرّف الى حضارتهم القديمة»...

حتى تلك اللحظة لم اكن قد سمعت الكلمة ولا قرأتها - «إنويت» - ومعناها الناس او الشعب، وقد حلّت مكان كلمة «إسكيمو» اي أكلة اللحوم، وهي التسمية التي اختارها الرجل الابيض حين بدأ غزوه للقطب الشمالي.

كذلك لم يسبق ان سمعتُ اسم الجزيرة النائية - «بافين» -

http://nj180degree.com

برغم زياراتي المتكررة لكندا، وخصوصا زياراتي الى تلك الجزيرة الفريدة، والتي اتفقتُ مع اهلي المقيمين فيها على تسميتها «ضيعتنا الشمالية» بينما سوانا من الناس المقيمين في كندا ينعتون «جزيرة الامير ادوار» بـ «جنّة كندا»؛ اما السكان الاصليون، فقد اطلقوا عليها من زمان، وحالما وقعت عليها ابصارهم، اسم «أبيغويت» ويعني في لغتهم «المهد فوق الامواج».

و «جزيرة الامير ادوار» تستحق تلك الالقاب جميعا بجدارة.

اما بالنسبة اليّ، فتبقى المحطّة الاخيرة لطيور ايلول، المهاجرة من قرى الجنوب اللبناني؛ اولئك الرواد الافذاذ وقد ساهموا في عمرانها من قبل مائة سنة ونيّف، ولا يزالون يعطونها نسغ الحياة وحبّات القلب.

* * *

لكن الرحلة الى جزيرة «بافين» تحمل معنى مختلفاً، فانا لم اسمع ان أَحَداً من مغتربينا قد حطّ فيها الرحال، ولا حملت اختامها رسائل الاحباب والغيّاب، ومن هنا، جاء غموض تلك الدعوة، واثارتها لشتى التخيّلات. وفيما كنتُ استعيد قراءتها، كان يتراءى لي، خلف الكلمات، اكثر من وعد بلقاء المجهول...

http://nj180degree.com

استغرقت رحلة الطائرة، من مطار «تورنتو» - احدى اهم المدن الكندية واكبرها - ستّ ساعات باتجاه الشمال. بعدها، كان علينا ان نتابع الرحلة بطائرات «اليمام» الاصغر حجما، انما الاقدر على مواجهة العواصف، والهبوط القسري، وفي ايّة مساحة ضيّقة.

* * *

كان القبطان في مزاج مرح، فاغتنم فرصة جهلنا، ووجلنا وراح يداعبنا بسرد الحكايات ووصف المغامرات. ثم انتقل من المداعبة الكلامية الى بهلوانيات طيران يُتقنها جيدا، فتارة يهبط بنا الى مستوى الارض وطورا يرتفع الى حدود الغمام. وفي خلال الصعود والهبوط، كان يرسم خرائط رحلاته السابقة الى تلك البقاع، ويروي عن مغامرات كاد بعضها يودي به الى الهلاك. ومن دون اية مقدمات، وجدنا انفسنا نتجاوز ما يُعرف باسم «خط الشجر» اي آخر حدود المناطق الحرجية، لنتابع الطيران فوق السهول القطبية الجرداء والمسماة «تاندرا».

* * *

كيف لي ان اصف تلك الصحراء الجليدية، المبقّعة بالثلج

والجليد؟!... وكان انعكاس النور فوقها خدّاعا للنظر في بعض الاحيان، ولا ادري كيف تراءت لي تلك البُقع الزرقاء بحيرات مائية. وهذا ما قلته لجاري الكاتب الكندي، فسارع الى تصحيح معلوماتي الساذجة: «ماء؟ اي ماء يمكنك ان تجديه في هذه المناطق؟ ان الارض هنا تبقى جامدة على مدار السنة، وفي بعض المناطق، تبلغ كثافة الجليد، تحت سطح الارض، اربعة امتار»...

شكرته على تلك المعلومات، وإن لم تُضف، الى نفسي، سوى المزيد من الترقّب القلق؛ فاذا كانت الحالة هكذا، هنا، فلماذا نمعن في الصعود شمالا؟

أولا تكفينا كثافة اربعة امتار جليد؟

وارتفع صوت القبطان يسلّينا من جديد بوصف المشاهد الخارجية...

- اننا نقترب من «پانيرتونغ»، محطتنا الاخيرة لهذه الرحلة. لكني، وقبل ان نهبط في «ملعب المدرسة»، وهو، للمناسبة، المطار الوحيد في المنطقة؛ قبل ذلك، سآخذكم في رحلة فوق سطح الماء... وقد سبق ان قام بمثلها «جيمس بوند». طبعا كلكم سمعتم باسم البطل «جيمس بوند». ان مشاهد «أوكتوبيس» احد افلامه

http://nj180degree.com

الشهيرة، صُوّرت هنا، فوق خليج «فوربيشير» الذي سُمّي كذلك على اسم مكتشف المنطقة. لاحظوا الصخور على جانبي هذا اللسان المائي، من فوق احدها قفز بطل الفيلم قفزته الشهيرة، نعم، من فوق...

وكنّا ننظر الى ذلك «الفوق» من «تحت». وكان القبطان يتحدث بحماسة ومرح، فكاد يُنسينا أَنَّنَا نطير فوق صفحة الماء، وجعلنا نشعر احيانا بأَننا يمكن ان نلمسها بايدينا لو فتحنا النافذة.

اوصلنا الى آخر حدود ذلك اللسان الازرق من امتداد البحر الشمالي، ثم عاد بنا، من دون ان يتوقف عن السرد. ومنه سمعنا عن رحلة النجمة «بريجيت باردو» وكيف هرعت الى هذه المنطقة، حاملة «عطفها» و «حدبها» على الحيوانات. وكان حيوان «الفقمة» هدفها في تلك المرّة، فانزلوها في فندق فخم، واحضروا لها جروًا من جراء الفقمة، احتضنته، وتركّزت عليهما عدسات المصورين، لتنقل حزنه ودموعه الى ارجاء الكون، وتخبر الجميع عن قسوة «الإنويت»، الذين قتلوا امه ليتاجروا بلحمها وجلدها. وقد فات النجمة الفائقة الحنان، ان تفهم حياة «الناس» - اي «الإنويت» - اي «الاسكيمو» - اي «أكلة اللحوم»...

مثلها مثل الغُزاة وصائدي الحيتان، حضرت لتجني كسبا شخصيا على حساب حياة شعب؛ فقد تسبّبت دعايتها في قطع ارزاق الصيادين، وسلبهم لقمة العيش الوحيدة التي تجود بها دنياهم؛ اذ ليس لهم مورد آخر سوى الصيد، وقد عاشوا عليه ثلاثين الف سنة، ولم تنقرض الحيوانات، لأَنهم حافظوا على التناغم الكوني، والحياة الطبيعية؛ اما اليوم؟!

* * *

انتهت، اخيرا، الجولة السياحية، وعاد بنا القبطان الى «ملعب الاولاد» حيث هبطت طائرته بسلام. وكنت في تلك الحالة من الدهشة والذهول، لما اسمع، واشاهد، فلم اسأل نفسي: من اين جاءتني تلك الشجاعة؟ وكيف تأتّى لي، انا الجبانة اصلا، ان اقوم برحلة من ذلك النوع الفريد، ومن قبل، كان مجرّد ذكر الطيران يوقف قلبي عن الخفقان؟

أتُراه التوق الى المجهول؟ ام انها رفقة الجماعة، وربط مصير الفرد بمصير الكل؟...

ام كانت الشجاعة مُستمدّة من ثقة عمياء بذلك القبطان، الذي حملنا على متن حكاياته، بقدر ما كان يحملنا بطائرته؟

* * *

http://nj180degree.com

وجدنا، بانتظارنا، عند طرف الملعب - المطار - بوسطة متوسطة الحجم، قادنا اليها «جولاي»، الترجمان الإنويتي، والنحّات، الذي يُشكّل عمله الفني في النحت، جسر عبور من العمل التقليدي، الى العصر الحديث.

اما الآن، فهو الدليل، والمترجم، اي صلة الوصل، بيننا وبين الناس هنا، خصوصا المسنّين منهم، والذين يجهلون ايّة لغة سوى لغتهم «إنوكتوتات»، وقد بدأ الجولة بالشرح التالي:

- نحن الآن في «پانيرتونغ»، آخر المناطق الآهلة. لقد أُعلم السكان بقدومكم، وستكونون ضيوفا على العائلات لكي يتسنّى لكم التعرّف عن كثب الى الناس واسلوب عيشهم. سوف يمرّ «الباص» بين البيوت، ويوزّعكم عشوائيا، الواحد منكم وحظّه. اما باقي المعلومات فتجدونها في الكرّاس بين ايديكم.

لحسن حظّ «الباص» وحظّنا، ان الطقس كان مشمسا والرياح هادئة لدى وصولنا الى «پانيرتونغ» اذ ان بقية الرفاق، وقد توجّهوا الى مناطق اخرى، من تلك الجزيرة ولم يصلوا اليها فاضطروا الى العودة، بسبب هبوب العواصف الثلجيه ... هذا وكنا لا نزال في منتصف شهر ايلول.

لكن الصحو، لا يعني ان الثلج كان غائبا، بل كان يكسو

المكان، انما الصقيع لم يكن قد بلغ حدّه المعتاد، لذلك امكننا رؤية المياه الزرقاء النقية، قبل ان تكسوها طبقات الجليد.

وكنا مستعدّين لمواجهة البرد بارتداء الجزمات المصنوعة من الجلد والفرو، والمعاطف «الپاركا» الخاصة ببلاد الصقيع، وقد أُعدّت لنا، ورافقتنا حتى عودتنا الى الفندق في «تورنتو».

اما الاستعداد للمواجهة الانسانية فقد تعلمناه من الكرّاسة - الدليل. وبتنا نعرف ماذا نتوقع، كما درسنا اسلوب التعامل مع الجماعة. وابرزت الكراسة النقاط الاشدّ حساسية، حتى لا نقع في الخطأ ومنها التوصيات التالية:

* لا تُقدّموا هداياكم لدى دخول البيت. ان تقاليد «الإنويت» تقضي بأَن تتركوا الهدية حين تغادرون، أَي لتكون علامة امتنان وشكر.

* من الافضل ان تختاروا هدية ذات طابع شخصي، قطعة من ثيابكم، «شال» او كنزة، او اي رمز تذكاري يحمل بصماتكم.

* لا تتوقّعوا ان يدعوكم اصحاب البيت الى الطعام. فمن العادات المألوفة هنا، ان يقوم الكبار بخدمة انفسهم بينما تُقدّم الخدمات للاطفال والعجزة فقط.

* * *

http://nj180degree.com

كان باب البيت، لدى وصولي، مفتوحا، واكتشفت فيما بعد، انه يبقى كذلك ليلا ونهارا. ودّعني «جولاي» وعاد الى الباص، ليتابع توزيع الرفاق. ووجدتني امام شاب في الثلاثين من عمره، ربع القامة، جدّي النظرات، تغلب عليه صفة الخجل او العزلة.

لم يهشّ او يبشّ. صافحته، وعرّفته الى اسمي، واسم بلدي، ولفظ هو اسمه «جوني»، من دون ان يُبدي الترحيب. لكني، وبفضل التوصيات، لم اكن اتوقع منه اكثر من ذلك. وكان يجلس الى جانبه ولد، في حدود الثامنة من عمره.

- ابنك؟...

سألته بتحفّظ فقال:

- لا ... انه ابن اختي.

ولم يترك لي المجال للمزيد من الاسئلة، فقط تطوّع هو ليخبرني بأن اخته توفيت، وكان الولد يعيش مع جدته، وبوفاتها هي ايضا لم يبقَ له قريب سواه هو ... جوني.

وثار فضولي امام هذا الانفتاح فسألته عمّا اذا كان هو متزوجا، فاجاب بالنفي القاطع:

- لا ... ولن اتزوج. اهوى حريتي، ولا أُطيق القيود. فأَنا صياد، وهذا يعني الحرية والانطلاق.

وهكذا وجدتُني داخل بيت جوني، وفي صميم حياته، وبأَقلّ من دقائق.

لكن المكاشفة الاولى انتهت عند ذلك الحد، فقد عاد الفتى الى صمته، او الى غيابه في رحلات تنقله اليها شاشة التلفزيون. ولاحظت ان الجهاز يبقى مفتوحا ما دام صاحبه في البيت، اذ يُشكل النافذة الوحيدة على الكون.

وكان جوني يُدخّن كثيرا ويشرب الشاي. ولا يرضى باللفائف الجاهزة، بل يقوم هو، بمساعدة آلة صغيرة، بلفّ سجائره، وجني متعة اعدادها الى جانب لذّة تدخينها.

* * *

كان الوقت لدى وصولنا قد تجاوز انتصاف النهار، واقترب من موعد الغداء، وبدأت استعيد التوصيات:

* تنهضين انت الى الثلاجة.

* لا تنتظري ان تأتيك الدعوة لتناول الطعام مثلما هو مألوف في تقاليدك.

http://nj180degree.com

* الإنويت البالغون يخدمون انفسهم وهم يرون ان الاطفال والعجائز وحدهم يحتاجون الى خدمة الآخرين.

وبرغم ذلك منعني الخجل من اتخاذ اية مبادرة فمكثت في المقعد، وانتظرت الدعوة. ولأن جوني اكتسب بعض المفاهيم الخارجة عن تقاليد الجماعة، بفضل تعلمه في المدرسة، فقد شعر بأن صمتي يعني الانتظار. ولم يترك لي المجال لكي انتظر اكثر، اذ نهض، ودعاني لارافقه الى الثلاجة، ففتحها، وتناول طبقا يحوي قطعة من اللحم تقارب في وزنها الكيلوغرام، قدّمه اليّ وقال:

– هذا لحم «كاريبو»، ومن صيدي. بوسعك ان تأخذي منه ما تشائين.

«كاريبو» يعني «الايّل» او «الرنّة» ... ويعني تلك القطعان الشاردة فوق الثلوج، وقد ابصرناها من الطائرة، بكل عظمتها ولا مبالاتها. وها هي، شريحة لحم من صيد جوني!

* * *

كان ذلك الطعام الوحيد المتوفّر للجميع. ولم يكن امامي خيار آخر؛ فقبلتُ الدعوة اذ بدأت اشعر بالجوع، فطلبت من جوني ملعقة زيت ومقلاة، لكي اشوي اللحم، اذ لم اكن قادرة على

تناوله نيئا مثلما تفعل الجماعة. ناولني المقلاة «التيفال»، واعتذر من عدم توفّر الزيت او السمن والزبدة. وفي الواقع، كانت الثلاجة فارغة من اي طعام او شراب سوى قطعة اللحم تلك.

رحت أُقلب شريحة اللحم في المقلاة فوق النار حتى نضجت وقبل ان اجلس الى المائدة الصغيرة قرب المطبخ، طلبت من جوني قطعة خبز، فاعتذر مضيفي من جديد:

– لا نَأكل الخبز، يؤسفني الا استطيع تلبية طلبك.

– امرك لله ...

قلت لنفسي، وجلست التهم ما توفّر لي من الطعام. وعندما انتهيت شعرت بأَن ما تناولته لم يُسدّ جوعي، وقطعة اللحم على تلك الصورة، فتحت ثغرة بدلاً من ان تردمها. كذلك لم يكن هناك اي لون من الوان الخضار والفاكهة، او الحبوب.

وكان ذلك درسي الاول عن هذه الناحية من حياة «الإنويت» واسلوب غذائهم.

* * *

لا شيء، هنا، لا شيء، سوى الصيد او القنص؛ فلا زرع ولا ضرع على امتداد السهول القطبية، اذ لا توجد مزارع من اي

http://nj180degree.com

نوع. والناس يعيشون على عطاء الطبيعة، وطبيعتهم قاسية، وهي تفرض عليهم نسق العيش: يأكلون لحوم الحيوانات البرية والبحرية ويُضاف اليها صيد الطيور خلال اشهر الصيف.

بعد غياب حسبته دهرا، عاد «جولاي» يتفقد احوالي، وسألني، عمّا اذا كنت بحاجة الى خدماته، فقلت من دون تردد:

– الخبز او بسكوت ... اي لون من ذلك الطعام الذي اعتدناه.

فطمأنني بأن هناك نوعا من «البسكوت» يُباع في «الكانتين»، اي مخزن البلدة ومطعمها في آن واحد. ثم دعاني لأُرافقه وابتاع ما احتاج اليه.

وفوجئت بالرفاق جميعا، في «الباص»، وكانوا، هم بدورهم، يبحثون عن الخبز. ولم يكن الخبز متوفرا، فاستعضنا بالبسكوت والجبن. وامّنت حاجتي من الصنفين، مثلما فعل الرفاق.

* * *

مهم ان تتعرف على مخزن البلد الذي تزوره. وقد كنت اتقصّد ذلك، في رحلاتي، اذ من خلال تلك الزيارة، اتعلم دروسا مختصرة، ومفيدة عن صناعة البلد وزراعته، فالمخزن هو الواجهة والمعرض لشتى البضائع والحاجات، ومن خلاله يُمكنني قراءة احوال المجتمع.

وتلك الزيارة القصيرة الى «كانتين» «پانيرتونغ» اختصرت لي احوال الناس: فهم في غنى عن السلع الاستهلاكية التي اعتدنا شراءها؛ وما زالوا يأكلون اللحوم، ويفضّلونها طازجة ونيّئة، مختصرين الطبخ ومعدّاته، بل وحاجاته الكثيرة والمنوّعة. وقد اعتادت اجسادهم، ومنذ اجيال، تناول صنف واحد من الطعام. كما أن صعوبة النقل تلعب دوراً كبيراً في عدم وصول حاجات مثل الخضار الطازجة والفاكهة والالبان، واذا وصل منها النزر القليل فبواسطة الطائرة، وهذا ما يرفع كلفة الحاجات الى حد يتجاوز القدرة الشرائية لدى السكان. كما ان التنويع في اصناف الطعام، لا يعني الكثير لمن عاش اجيالاً على الصيد والقنص.

http://nj180degree.com

«الإسكيمو» (٢)

الصور امامي، مثلما اخذتها، خلال الرحلة، من نافذة الطائرة، اليمامة، او من فوق ربوة ثلجية متجمدة... لا تزال محفوظة في «البومها» الصغير، تماماً، مثلما تحفظها الذاكرة: مناظر طبيعية لم يسبق لنظري ان وقع على مثلها من قبل، ومشاهد من مناطق القطب الشمالي، حيث لم تدس قدمٌ، او هكذا يُخيل اليّ.

بُقعٌ زرقاء، بين مساحات من الثلوج، لا تُحدّ، يعبر فوقها خط الطيران، وانا اتأملها من هذا العلو الفضائي واتساءل: لو تهبط الطائرة هنا، او لا يكون هبوطنا شبيهاً بالهبوط الاول فوق سطح القمر، او على كوكب الزهرة؟

* * *

فقط اتساءل، وتتابع الطائرة تحليقها مخترقة كثافة الضباب، يرخي الملاءة ذات اللون الحيادي، حتى اذا خرجنا من الطبقات

http://nj180degree.com

الضبابية، عدنا الى التحليق فوق ارض المشهد الوحيد: بياض الثلج، ولا احد يقوى على تقدير كثافته.

لمحت شيئاً يتحرك، ولم اصدق نظري: هل يُعقل ان تكون هناك حياة، في هذه الفلوات المتجمدة؟!

بلى وهناك اكثر من حياة واحدة، ابصرت الاول يتحرك ثم يتبعه الثاني، والثالث و... قطيع كبير من حيوانات « الرنّة»، او «الايائل» القوية، وحدها، تقاوم هنا، وتنتصر. وتبقى منتصرة الى ان تواجه الانسان.

«خزّان اللحم لسكان القطب الشمالي». هكذا يدعونها، وقد غذّت السكان المقيمين هنا منذ الوف السنين، لكن، ما هو غذاؤها تلك المخلوقات النباتية؟ واي نبات ترعى، فوق الثلوج؟

– «بلى»، يشرح جاري الكندي، والخبير في احوال العيش في القطب الشمالي، ثم يُضيف: «لو لم يكن هناك ما يُغذيها، أكانت استطاعت البقاء، بل النمو والتكاثر؟... في الصيف، وحين تذوب الثلوج، تنبتُ اصناف من العشب شديدة المقاومة فتكون الغذاء للحيوانات النباتية. ولكن، بعدما يبدأ فصل الصقيع، ويسدّ الثلج كل المنافذ الى صفحة التراب، تبحث «الايائل» عن غذاء آخر، في انواع من الطحلب تنبت تحت الثلج، والحيوانات

تبحث عنها، وتعرف مخابئها من الرائحة، وبالغريزة تنقاد اليها وتقود الاجيال الاصغر سناً» ...

«ما ارحم الطبيعة، وما أرأفها ببنيها، اينما وجدوا!»، قلت لنفسي، حين عجزت عن فهم اعمق لتلك المعجزة ... حتى هنا، في محيط الجليد تبقى الطبيعة أمنا الرحوم !...

* * *

وتتابع الطائرة تحليقها شمالاً وينقشع الضباب نهائياً، لنجد فوقنا صفاء الازرق، ونقاءه. وتحتنا مياه الاوقيانوس الشمالي، وعلى مسافة ايام قليلة عن موسم الجليد.

وكان لون المحيط بلَوْن الزرقة الآتية من الفضاء، فبدا وكأنه مرآة صقيلة، تعكس زرقة الاعالي.

– نحن نقترب من نهاية الرحلة.

يرتفع صوت القبطان، مؤكداً بثقة، ان الرحلة تشارف على نهايتها.

– ولكن، قبل الهبوط، سوف نطير فوق خليج «فوربيشير» لبعض الوقت.

http://nj180degree.com

خليج ؟... هذا اللسان شديد الزرقة، صافيها، يتمدد من مياه المحيط، بين سلسلتي جبال صخرية.

لا العين رأت، ولا سجلت الذاكرة الواناً تشبه تلك الالوان الشمالية؛ واينما التفت، كانت تطالعني، من الجو والبحر، كما من «شماريخ» الصخور، فإذا الوانها تتنوع مع كل صخر، فهذا رمادي على زرقة، وذلك اخضر بلون الزبرجد. وتجيء الثلوج فوق تلك تيجان العفة. وفي الواقع هي كذلك، اذ لا يرتفع الى ملامستها سوى تموجات الرّيح.

* * *

حين احاول استعادة تلك المشاهد، من الذاكرة، يُخيل اليّ، أني اعود الى حلم جميل من احلام الطفولة، تسيطر عليه الغرابة التي تجعله الى الخرافة اقرب منه الى واقع الامور.

لكنها حقيقة، تلك الصور، ومحفوظة في «البوم» خاص بالرحلة. الى جانب المشاهد الفخمة، والطاغية لطبيعة بكر، تبدو المساكن الجاهزة المتواضعة حيالها غير ملائمة، ولا منسجمة مع المكان. وبالطبع، لو بقيت بيوت الثلج (الايغلو) هناك كانت في تناغم تام مع محيطها، لكنهم ازالوها، ولم يَبْقَ منها اي اثر، سوى اشباه لها وصور، يضمها المتحف. ولم تكن بيوت الثلج

تُبنى بشكل عشوائي، بل لها قواعد واصول، كما ان الرجال تعلموا، من تجاربهم، كيف يحسّنون تلك البيوت، لتصبح حضن الدفء والامان ... انما، مهما بلغ اتقانها، فهي تبقى قاصرة عن تأمين نوعية الدفء والامان المتوفرة في البيوت البديلة، المصنوعة من الخشب الصلب، مسقوفة بألواح كثيفة، وقوية، لا تخترقها الرطوبة، انما تبقى اعجز من ان تصمد في وجه العواصف القطبية. لذلك، يرى الناظر اليها حبالاً من الحديد او الفولاذ، تُزنِّرُ كل بيت وتسدل، من ارفع قمة تعلوه، لتربطه بأوتادٍ تُدق في الأرض.

* * *

وكان رئيس نادي القلم، قد حدثنا، قبيل الاقلاع، عن الانقلاب الشامل الذي حصل في المنطقة، وتناول السكن، مثلما لامس اعماق الحياة الانسانية، وبدل اتجاهها.

وكانت الدعوة، بمثابة اطلاق صرخة اخيرة، في آذان كُتاب العالم، ليشهدوا على تلاشي شعب وحضارة، وربما تجاوز بعضهم الشهادة، ليكتب ويدعو الى الانقاذ.

لكن هذا المطلب بعيد التحقيق، فالانقلاب حدث، وقد «سبق السيف العذل».

* * *

http://nj180degree.com

انما لا بأس بتسجيل الشهادة. ومن اجل ذلك، دُعينا، حال وصولنا، الى لقاء مع بعض المعمرين، من النساء والرجال. وكان «جولاي» واسطة الترجمة والتفاهم، اذ انه يتقن اللغة الانكليزية ولهجات المسنين، وهي تقارب الخمس عشرة لهجة، وتسمى «انوكتوتات». وهذه اللغة، والتي ظلت وسيلة التفاهم لجماعة الانويت طوال فترة وجودهم اي منذ ما يزيد على الثلاثين الف سنة، باتت اليوم مهددة بالضياع، وقد بقيت تُنقل شفاهاً، يعلمها الجد الى حفيده. وقبل ثلاثين سنة، تقريباً، وعن طريق بعثات المرسلين والمهتمين بالتربية، وضعت للحروف اشكال تشبه الاشكال الهندسية، وباتت اللغة الشفهية، لأول مرة في تاريخها تُكتب وتُقرأ، وتستخدم للترجمة ايضاً.

* * *

ها هي السيدة التي تتقدم على الجميع «ملايا اكولوكدوك» اسمها صعب على اللفظ والحفظ. وهي تبدو سيدة القوم وحافظة التراث. جاؤوا بها فوق كرسيها النقال، لتروي لنا عن تقاليد الشعب، والماضي، والاساطير، اي التراث المحفوظ طي الصدور... ولاحظت ان النساء هن حافظات ذلك التراث، بينما جلس الرجال، في الصف الثاني، يستمعون اليها باحترام.

اخبرتنا انها حفظت تلك الحكايات عن امها، وعن جدتها من ... ولولا ذلك التواصل، لما بقي شيء من حكايات الشعب ... التراث، اذ ان الرجال، يمضون وقتهم في العمل، واعمالهم ... بعدهم عن مجتمعهم، وعن مساكنهم معظم الوقت: فهم ... صيادون.

وقالت السيدة حافظة التراث، انها حريصة على نقل كل المعرفة القديمة الى الحفداء، لئلا تضيع. ولكن هل يهتم الحفداء بذلك؟... وهم مثل الشباب في كل مكان، يبحثون عن الجديد، وعن المغامرة التي تدفعهم ابداً الى الامام وقلما يتوقفون ليلتفتوا الى الوراء ... الى الماضي.

ويبقى على الجيل المخضرم واجب نقل الشهادة. واقرأ من رواية الكاتبة «الانويتية» «ميني» تساؤلها:

- من اكون؟... ومن نحن؟ فلسنا الانسان الكندي، ولا يمكننا ان نعود الى خلفياتنا، والشعب الباقي، ملتصقاً بأرض الاجداد، لم يعد يقبلنا.

تساؤلها يطلق صرخة جيل بأكمله، أُجبر على الخروج من بيئته، ومن احضان تقاليده، ليندمج في سياق النظام العام، عن

http://nj180degree.com

طريق المدرسة والتربية. وقد وصل الناجحون الى مراكز مرموقة، وبنوا لهم الكيان الجديد، لكن هذا الاختراق لتلك القشرة الصلبة من حضارة الشعب القديم، ترك كثيراً من الضحايا، ونراهم يتسكعون في شوارع المدن الكبيرة، يذرعون الساحات والميادين، وقد باتوا مشردين، وضحايا الادمان من كل انواعه.

* * *

وتحكي السيدة العجوز، من فوق كرسيها النقال، عن جدتها فتقول انها كانت «شامان» اي رائية. ورؤيتها مكنتها من ان تبصر الانسان الابيض قبل ان يشق سبيله الى تلك المناطق: «أبصرهم، عيونهم واسعة، وجوههم بيضاء، حمراء، ويحملون في قبضاتهم اسلحة مخيفة...».

رأتهم ونبهت الجماعة. مثلما فعلت «زرقاء اليمامة» في التاريخ العربي، وذلك قبل وصول صائدي الحيتان الى ذلك المحيط من الكرة الارضية.

* * *

لاحظت، لدى الاصغاء الى الحكايات والاساطير، انها مطعمة بنكهة شرقية، تذكرنا بارتباط «الانويت» بجذورهم الآسيوية.

...ن وعلماء الانساب يردون أصلهم الى شمال آسيا، ومن ... هاجروا على دفعات، واجتازوا المعبر الذي كان في حينه ... القارتين فوق مضيق «بيرينغ». ويقدر الباحثون أن هذا حصل ... ثلاثين الف سنة او ما يزيد.

وربما بسبب انتمائهم الى تلك الاصول الشرقية، شعرت بينهم ...الفة، وتصورت وجه جدتي في وجه السيدة العجوز وحتى ...ساطيرها، يمكن ان تجد لها مرادفات في تراثنا. ولم يكن الامر ...ذلك مع سواي من الكتاب القادمين من اوروبا، فبالنسبة اليهم، ...انوا امام جماعة غريبة، وبعضهم لم يَقْوَ على اخفاء نزعة ...التعالي، لينحني قليلاً، صوب فهم للجماعة، ببساطة وموضوعية.

وقد تفجرت الفوارق، في المساء، وقت العشاء والسهرة الفولكلورية التي اقيمت لتكريمنا.

* * *

كانت القاعة، شبه خالية، لدى وصولنا، ولفتنا فيها بساطان من البلاستيك فرشا فوق الأرض، في وسط القاعة، وتمدد فوق الاول حيوان «كاريبو» مذبوحاً ومسلوخاً، وجاهزاً للتشريح. وكانت هناك سمكة «تشار» كبيرة فوق البساط الثاني، طازجة ومهيأة للتقطيع. وهذا هو الطعام المفضل لدى «الانويت».

http://nj180degree.com

وما ان دخلنا، حتى سمعت صرخة رعب تطلقها احدى الكاتبات، نتيجة صدمتها القوية امام هذا المشهد. وحين خافت عليها رفيقتها من الاغماء، جرتها خارج القاعة.

ويبدو ان الصدمة كانت من القوة الى حدّ، جعل الكاتبة الرقيقة تعزف عن تناول اي لون من الوان الطعام وحتى المطبوخ بلحم «الرنة» او سمك «تشار» القطبي الفاخر.

حمدت الله، فيما بعد، على ان زميلتنا لم تعد الى القاعة، ولذا لم يطالعها مشهد الرجال «الانويت»، يحملون سكاكينهم الحادة ويقتربون، كل واحد من جهته، ليقتطعوا قطعاً من اللحم، يتناولونها، او يقدّمونها الى نسائهم وصغارهم. وقد فعلوا ذلك من دون اية دعوة او مقدمات، بل اندفاعاً من تقاليد يحفظونها، ولا يجدون غضاضة في ممارستها حتى وان لم تتفق مع مزاج الغرباء.

لم تلبث القاعة أن امتلأت بالكبار والصغار، والشيوخ والأطفال. كانوا يتوافدون الى مناسبة فريدة، فلا يحدث ان يأتيهم، كل يوم، زوار من هذا النوع، ومن ذلك الخليط، ومن شتى اقطار المعمور.

كنت اراقبهم، والاحظ كم يلزمون حياديتهم، سوى الاطفال،

والبنات منهم بصورة خاصة ... فكانوا يقتربون منا، وقد انتشرت ابتسامات حلوة تنير وجوههم، ويتأملوننا بدهشة، واحياناً يتجرأون على طرح سؤال.

لفتني منظر الامهات الشابات وقد احتفظن «بالشقبان» متدلياً فوق ظهورهن، وفيه يجلس الطفل، مرتاحاً هانئاً. وهو يذكّر بشقبان البدويات حين ينتقلن مع اطفالهن عبر المسافات البعيدة.

الى جانب المائدة الدسمة، شملت الحفاوة بنا اقامة حفلة موسيقية، عزف فيها الشباب موسيقى «الجاز» و «الروك» ولم تكن لها اية علاقة بالموسيقى البدائية التي عرفها اجدادهم، وكانوا يعزفونها على الدفوف والطبول، المصنوعة من جلد الغزال، وكانت مستوحاة من الموسيقى الطبيعية في بيئتهم، صفير الرياح، واصوات الحيوانات او زقزقة الطيور في فصل الصيف.

* * *

الوقت اشبه بكبسولة مضغوطة نريدها ان تمتلئ بشتى التجارب. وفي خلال الايام الثلاثة التي قضيناها في «بانيرتونغ» اطلعنا على تاريخ المنطقة من خلال زيارة المتحف، ويضم بيوت الثلج القديمة «ايغلو» والتي لم يعد لها اثر في حياة السكان، وخيام

http://nj180degree.com

الصيف المصنوعة من جلد الحيوانات، وخصوصاً «الكاريبو» كما تعرفنا الى الصناعات اليدوية، القديمة، مثل النحت على العظم او حجر الصابون، وتلك المستحدثة، مثل حياكة السجاد التزييني.

والفنان «الانويت» ينحت بيئته، ويرسمها بدقة ومهارة، واشكاله تمثل المخلوقات المحيطة به، وفي طليعتها الحيوانات البرية والبحرية والطيور. كما انها تحمل رموزاً للأرواح التي كان يخشاها، ويسعى الى استرضائها.

* * *

في صباح اليوم التالي، وقبيل الرحيل، جاء مدير المدرسة الوحيدة في تلك البلدة، ودعاني لأقوم بزيارة، اتحدث خلالها الى التلامذة عن الأولاد في لبنان، وكيف عاشوا زمن الحرب. حسبتها مهمة سهلة. ولكن، ما ان وجدتني وسط الصف، والعيون تضرب حولي طوقاً من الاسئلة الصامتة، حتى بدأت اتراجع عن حماستي، فماذا اخبر هؤلاء الشباب عن عالمنا، وهو بعيد جداً عنهم، وعن حياتهم الهادئة؟... وكيف أشرح لهم معنى الحرب؟...

نعم، اكتشفت ان نقل التجربة ليس سهلاً، وشعرت بأني

اتحدث عن عالم آخر، بعيد وغريب، ولا علاقة تربطهم بتجاربه القاسية ... لذا، فضلت ان اتكلم عن التاريخ، وعن الجغرافيا .المناخ المعتدل والدافئ، والذي ننعم به على مدار السنة. وهذه الصورة المعاكسة لما يعرفونه في عالمهم. وهكذا، تركت في اذهانهم توقاً الى معرفة البلد، بدل النفور من احداثه، لأني اشفقت على حياتهم الحيادية، الخالية من قسوة الكلام عن كلمة لا يعرفون معناها: الحرب.

اعطتنا الطبيعة فرصة الصحو طوال فترة الزيارة، ولكن ما كدنا نقلع بطائرة العودة، حتى هب الاعصار «هوغو» فقضينا ساعات العودة نتأرجح بين احضانه، صعوداً وهبوطاً، حالمين بسلامة الوصول الى «تورنتو» حيث كان معظم الكتاب قد انتظموا، لبدء اعمال المؤتمر.

http://nj180degree.com

حكيم عيون

طرح عليّ سؤاله مثل لغز:

ماذا يفعل رجل، عاش كفيف البصر طوال نصف قرن؟... ماذا يفعل هذا الرجل حين يعود اليه بصره؟

فوجئت بالسؤال، اذ ان الموضوع لم يكن متوقعا في سهرة اقيمت لتكريم صاحب السؤال، وهو طبيب، جرّاح عيون، اكتسب شهرة فائقة جعلت اسمه ينتشر في العالم، ويتجاوز وطنه، لبنان، بل وحدود المستشفى الكبير في لندن. وبقيت تلك الحكاية تقلقه، وتُلح عليه، كي يذيعها، لأنه، كما قال، لم يواجه، طوال حياته العملية، رجلا شبيها بذلك الرجل الذي جاءه ذات يوم، من قرية نائية في جرود لبنان:

«بدا لي مثل سواه من رجال الريف، فقد كان عفوي السلوك،

http://nj180degree.com

بسيطا، لكنه، برغم ذلك، جعلني أحس بشيء من تأنيب الضمير...».

والسبب؟

كدت أسأله، لكنه لم يترك مجالاً للتدخل، اذ كان مُتَحَمِّساً لمتابعة روايته، فتركته يروي، واكتفيت مع سائر المدعوين، بالإصغاء حتى النهاية:

● جاءني الرجل، ذات يوم، برفقة شاب هو ابنه. وما كنت لاخمّن أن ذلك الشاب الأنيق، الوسيم، هو ابن لهذا الريفي المفطور على البساطة، ولا أقول السذاجة، اذ تعلمت منه، خلال الأيام القليلة التي أمضاها في المستشفى، تعلمت الكثير من حكمة كانت تنقصني. أما مظهره، فهو ما لفتني إليه وسط ذلك الجو الغريب، فقد كان يرتدي السروال التقليدي، ولم يتخلَّ عن الكوفية والعقال، أو يخلع حذاء غليظا، لا حاجة به إليه، بعيدا عن الحقول والبراري. وكان يحمل في إحدى يديه، عصا لا تفارقه:

– أبي يعمل في رعاية المواشي، وهو يرفض التخلي عن عصاه، فهي رفيقته أينما ذهب، وكأنما يعتاض بها من قطيعه. ثم انها سنده في غياب البصر...

● قال ابنه شارحاً ذلك بالإنكليزية. ثم ابتسم، فابتسمتُ،

... بدأ عدم مبالاتي بالمظهر الخارجي، فالمهم أن يكون مرتاحاً، ثم ... سهلاً على ابن السبعين أن يُبدل عاداته، أو يتعلم أموراً ...عايرة لنسق حياته وطبيعة سلوكه ... ولم يكن صعباً عليَّ أن ...هم كيف وصل هذا «الراعي» اليّ، وكيف أمكنه دخول هذا المستشفى الشهير في لندن، والخضوع لعملية قد تكلف ألوف الجنيهات ... أقول لم يكن فهم التناقضات في وضعه صعباً علي، اذ اعتدت أن ألاحظ هذا التباين بين جيلين، لدى معظم المرضى العرب، الذين يطلبون الاستشفاء في لندن، فالأبناء تعلّموا، وعملوا، واثروا، فتجاوزوا في زمن قصير أحوال آبائهم وأجدادهم، خصوصاً اذا كانت أعمالهم في الدول الثرية بمواردها الطبيعية. واذا كان المظهر الخارجي يوحي بالتناقض بين الجيلين، فقد ظل، في صدور الشباب، مخزون من التقاليد، أبقاهم في الظل القريب من أولئك الآباء. وهذا ما أحببته وقدرته لدى ذلك الابن، وهو كبير المهندسين في إحدى شركات البناء الخليجية، وقد تفرغ لبضعة أيام، كي يبقى بجانب والده، يمنحه الطمأنينة وثقة هو في أمسّ الحاجة اليها في غربته الوقتية، خصوصاً أنه معوّق، وجاهل للغة البلاد.

* * *

http://nj180degree.com

لاحظت أن الشيخ الضرير بقي واقفاً لدى دخوله العيادة، ودعوته الى الجلوس فأطاعني بصمت، ولم تفتني استقامة جسمه، وقوة بنيته، برغم ضمورها. كذلك لفتني سلوكه العفوي، البعيد عن التعقيد. كان يجيب عن أسئلتي بصراحة، غير مبال بالمكان أو بشخصية السائل. وقد جاءت نتائج الفحوص، لحسن حظه، مشجعة، وواعدة باسترجاع النظر، لذا، مضيت في الأعداد للعملية، ونجحت:

- لكن هذه أعجوبة ... حدثت أعجوبة على يديك، يا دكتور!

كانت تلك عبارته الأولى، حين رفعت الضماد عن عينيه في إثر العملية:

- أعجوبة أن تعيد الي بصري بعدما فقدته طوال نصف قرن. بارك الله فيك، وفي هذا الطب الذي تدعونه «جراحة»...

- البركة فيك يا عم. ومبروك الشفاء.

افترت شفتاه عن ابتسامة:

- يمكنني الآن ان أبصر وجهك ووجه ابني، ونور النهار ...

واعترضته بلطف:

لكن علينا ان نُعيد تضميد العين لبضعة أيام، ريثما يشفى الجرح تماما.

نهض من سريره محتجاً:

لا ... لن أقبل ... فتحت عيني، ولن أغمضهما بعد اليوم.

كان في صوته رفض قاطع لأوامري. فهذا الرجل المفطور على العيش الحر في الفلوات وفوق قمم الجبال، لم يكن مستعدا للعمل بأوامر أي مخلوق. فعدت الى لهجة الحزم:

- انه تدبير ضروري، يا عم، والا نخسر كل شيء.

راح يهز رأسه، وكأنه لم يفهم ما قلت. وبدا لعيني مثل طفل حملوه الى فرحة العيد، وهو يتمتع بكل لحظة، ولن يقوى أحد على اخراجه من فرحته تلك لذا وجدته ضروريا، وحرصاً على نجاح العملية حتى النهاية، أن أعيد تقطيب الجفنين، ريثما يتخطى الرجل مرحلة النقاهة الدقيقة، ويصبح بعيدا عن أذى الغبار أو الجراثيم.

قبل هذا التدبير، على مخضض ولاذ بالصمت والانتظار، الى أن حان موعد خروجه من المستشفى.

وكم كانت فرحته عظيمة، وهو يخطو خطواته الأولى في

http://nj180degree.com

النور. طرح عكازه جانباً، ودفع ابنه بعيداً عنه، وراح يمشي وحده، يزهو طفولي:

– دعوني وحدي ... بات في وسعي أن أبصر ... الدنيا من حولي منورة.

وتابع سيره بجدية وخيلاء. كنت بغاية الانشراح والرضى وأنا أودعه، معتقداً أن الحكاية انتهت عند عتبة المستشفى، في عملية مكللة بالنجاح، وبعودة رجل الى عالم النور، بعدما قضى ردحاً من الزمن في حلك الديجور، ولكن ...

* * *

وصلتني المفاجأة، ذات يوم، في رسالة مفصلة، كتبها الابن الذي رافق ذلك الشيخ الضرير الى لندن، وهذا ما ورد فيها:

– يدعوني الواجب الى أن أشكرك وأعترف لك بالعبقرية الطبية، الى جانب خلقك الرفيع، وسلوكك الإنساني الراقي.

يا سيدي الدكتور:

لاحظت أنك لم تسجل بدل أتعابك الشخصية على عملية الوالد، متأثراً، ربما، بمظهره الخارجي، وقد عاش معه، عمره، ولن يتخلى عنه الآن، كما أنه لا يتخلى عن قطيعه، وحياته الحرة في

البراري وبين الجرود، وذلك برغم قدرتنا، أنا وأخوتي، على توفير حياة مريحة له وللوالدة. وقد تركته على سجيته ولم أعترض أو أتدخل في شؤونه الخاصة. لكن، وبصفتي ابنه البكر، فإني مسؤول عنه، واني، ولله الحمد، قادر على دفع النفقات كاملة. وبما أنك لم تحدد رقما لأتعابك فأرجو أن تقبل مني هذه الهدية المتواضعة، عربون تقدير، وأعترف بفضلك على الوالد وعلينا جميعاً.

أما الشق الآخر، وقد يهمك الإطلاع عليه، فهو التحولات الجديدة في حياة الوالد، وها أنا أرويها بالتفصيل:

لقد عاد الينا الرجل، وكأنه مولود من جديد. وبالطبع، كنت تترقب ذلك وتعرفه ربما من حالات مشابهة في خلال ممارستك الطب.

وكان أول ما فعله، أن وقف أمام المرآة، وقفة طويلة، وراح يتفحص كل عضو فيه، ويلاحظ العيوب التي لم تتح له رؤيتها من قبل، وهاك بعض ما اكتشف:

بدأ بأسنانه، فلاحظ أنها تحتاج الى عناية مكثَّفة واصلاح جذري مع التجميل طبعا. فتجاوبنا معه، وقمنا بما يلزمه لذلك.

http://nj180degree.com

ثم جاءت ملاحظته التالية، حول شعره، وحلاقة ذقنه وشاربيه. فهو لم يعد راضياً عن حلاقه، وبات متطلبا في طريقة قص الشعر، وحلاقة الذقن، فاستجبنا لطلبه، وبكل طيبة خاطر.

ثم جاء دور الثياب. فمع أنه أصر على البقاء في زيه التقليدي المألوف، غير أنه طلب نوعاً جديداً من القماش والألوان، ثم راح ينتقد نوعية الخياطة السابقة.

ولم يكن صعباً أن نجد له خياطاً ممتازاً يريح ذوقه ويرضي حسَّه الفني الجديد.

وبعد ذلك، ماذا تنتظر يا سيدي الدكتور ؟...

نعم، كان التحول الآخر هو ما أقلقنا، ولم نحسب له أي حساب، وبالطبع، قد لا يكون مر ببالك أنت أيضا، حين وعدت بنجاح العملية ورده الى دنيا النور:

لقد حملق الوالد جيداً في وجه رفيقة عمره، وشريكة حياته منذ أن فقد بصره، ولم يعجبه ما رأى: فالمرأة الواقفة أمامه، والساهرة، عمرها، على راحته وخدمته، بدت لعينيه الجديدتين غير ما كان يصوره خياله: فهي متقدمة في السن، وفي عقدها السابع، مثله: ولذلك لم تعد صقيلةَ الخد، ناحلة القد، متألقة

النظرات. وراح يبتعد عنها، خطوة، خطوة، ثم لم يلبث أن خرج من صمته، فصارحها بحقيقة مشاعره نحوها؛ وطلب منها أن تتفهم وضعه، وبالتالي ترضى بالطلاق.

بالطبع، كانت تلك صدمة مزلزلة لامرأة ضحَّت، وصبرت وانتظرت أن تحتفل مع رفيق عمرها بفرحته الكبرى وعودته الى دنيا النور. وها هو يخذلها، ويبحث لنفسه عن امرأة ترافقه في دروبه المقبلة.

ماذا في وسعنا أن نقول له؟... وكيف نفسر هذا السلوك، يا دكتور؟ وهل سبق أن مرت بك حالات مشابهة؟... وهل، وأنت تقوم بالعملية الجراحية، هل خامرك الشك بأن هذا قد يحصل، وأخفيت عنا توقعاتك؟...

لا ... لا تظن أني عاتب أو القي اللوم عليك ... أبداً، فأنا ما زلت أعتبر نجاح العملية نعمة، حلت على الوالد، ومنحته فرصة السير في النور، وحياة جديدة ما كانت لتتحقق لولاك. لكنني، في الوقت ذاته، شعرت بأن من واجبي اطلاعك على هذه التفاصيل – المضاعفات – لعملية اعتُبرت طبياً، ناجحة. ولا حاجة بي الى أن أكرر قولاً، لم يبارحني طوال الأسابيع الماضية: أن سعادة البعض، قد تأتي، وإن متأخرة، لكنها، في بعض

http://nj180degree.com

الحالات، تكون على حساب تعاسة الآخرين ...

صبي الدكان

أذكر تماماً تلك اللحظة، فقد كانت يدي تعالج عبوة الغاز، وأنا أحاول وصلها بالأنبوب مكان العبوة الفارغة. لحظة حاسمة، تستدعي التركيز الدقيق ...

وكان ربّ البيت يقف فوق رأسي، يراقبني أعمل. عيناه عينا صقر، فالغاز مادة خطرة، ولا مجال معها للاهمال أو السهو.

هكذا أوصاني معلمي لحظة أوكل اليّ هذه المهمّة:

- يبدو لي أنك فتى عاقل، ولذا يمكنني تسليمك المسؤولية. إنتبه جيداً، أنت تتعامل مع مادة خطرة ... الغاز. ولا مجال للإهمال.

هكذا قال.

وقلت لنفسي: «أنت تريد أن تعمل، وتتقدم، فعليك أن تبقى مطيعاً وتحفظ الوصايا، وتتعلم خطوة خطوة».

http://nj180degree.com

وكان ذلك في الأسبوع الأول بعد وصولي الى بيروت. مدينة السحر والدهشة. كم سمعت عنها من الرفاق!... وقد سبقوني في النزوح إليها ليجدوا لهم أعمالاً في «ورش» البناء القائمة هناك.

لكني لم اوفّق بالعمل في ورشة، فرحت اتجوّل في الأسواق، وأعرض نفسي على كل صاحب دكان الى أن أستوقفني ذلك الرجل، وهو صاحب دكّان صغير يشبه، الى حدّ كبير، دكاكين قريتنا في الريف البعيد، تجمع البقالة والسمانة في مساحة ضيقة، وتزيدها ضيقاً رفوف خشبية، رُصّت فوقها البضاعة رصّاً محكماً، لم يترك منفذاً لنسمة هواء.

وكان الغاز من جملة السلع التي يتعامل بها صاحب الدكان...

تميّزني جيداً، بعيني خبير مُحنّك وقال:

– يبدو أنك فتى محظوظ. لقد غادرني «الشغّال» قبل أسبوع، ليزور أهله لمدة يومين، ولم يرجع، فأرجو أن تكون أصدق منه.

– أنا بأمرك يا معلمي ...

قلت، ونظراتي في مستوى الأرض إمعاناً في الطاعة ... هكذا أوصاني أبي، وهو يودعني، قال:

الطاعة، الوداعة والأمانة. ثلاث صفات يجب أن تتحلّى بها في غربتك، يا بنيّ. ولا سند لك هناك غير حسن السلوك. إمضِ والله معك.

لا يزال أثر يده على كتفي، حين ودّعني عند محطة الباص. عندما استدرتُ أُشيّعه بنظراتي خُيّل اليّ أنه كان يمسح دموعه.

رجل بأس وتصميم، أبي. وهو لا يبكي. لم أره يوماً دامع العينين، فقد علّمته الحياة بعض قسوتها، اذ لم تكن حانية عليه، وهو الذي عاش طفولة محرومة من عطف الأبوين، حاول جهده، كي يعوضني، وأخوتي، من نقص تذوّقه وحرمان عاطفي أتعس طفولته.

لكن الفقر جائر وهو «أسوأ أصناف العنف» كما قرأت في كتاب الحكيم الهندي.

والفقر «طفّش» ثلاثة أرباع الشباب في قريتنا. معظمهم انتهوا في بيروت، أكبر ورشة مفتوحة في المنطقة.

لكني انتهيت في هذا الدكان، أعمل أجيراً عند صاحبه وهو ليس ثرياً، ويناضل بكل جهده، ليصمد في وجه «سوبر ماركت» ناهض الى الجانب المقابل من الشارع.

* * *

http://nj180degree.com

«سوبر ماركت» كلمة غريبة وجديدة على سمعي. وعندما أدركت معناها، صرت أقدّر موقع معلّمي، وأدركتُ السبب الذي جعلهُ لا يتخلّى عن أسلوبه في العمل، وقد خدمه في سنيه الماضية، خصوصاً خلال فترة الحرب، وأعني الخدمة الخاصة، ونقل الحاجات الى بيوت الزبائن. معظمهم يتصل به تلفونيا، ويوصي على قائمة من الحاجات، يتكفّل هو بوصولها الى المنزل. ولتلك الغاية، كان يحتاج اليّ. وبدأت أكتشف مواهب كامنة في شخصيتي، بينها الحسّ الجغرافي السليم، والذاكرة القوية. كان عليه أن يذكر لي اسم الزبون مرّة واحدة، فيُسجّل على صفحة الذاكرة، ولا يعود يُنسى.

والسيدة اتصلت ذلك الصباح، وطلبت قارورة غاز، فهرعت الى تلبية طلبها.

* * *

حين قرعت الباب، فتحه ربّ البيت، وهو رجل متوسط العمر والقامة، قادني الى المطبخ، والى الزاوية التي تواري قارورة الغاز، ثم وقف يراقبني أعمل.

باشرت عملي بالخطوة الأولى، فنزعتُ الأنبوب من القارورة القديمة، وحاولت أن أنقله الى الجديدة الملأى، حين لمحت من باب

سف مغلق، ويُفضي الى غرفة جانبية ... لمحت سيدة حسناء، ي متوسط العمر، وكانت السيدة جالسة فوق كرسي، وقد وقف حلفها تماماً شاب في مقتبل العمر ... فجمدت يدي حول «العزقة» المفروض أن أُحكم ربطها بالأنبوب والعبوة في آن.

لم أتمكن من تجاهل المشهد، برغم كل توصيات معلمي، بأن ألزم خط الأدب. تلك اللحظة أنستني كل الوصايا ... وقد لاحظ ربّ البيت ذهولي، وجمود يدي فسألني:

– ما بك؟... هل هذه أول مرة تمارس فيها عملك؟

ارتعشتُ أمام سؤاله، خصوصاً وأني لمست فيه بعض استياء، فعدتُ أتابع عملي من دون أن يزول القلق الذي انتابني، ولا خفّ انشغال البال، وقد عصف برأسي، وأثار فضولي لمعرفة ما الذي يدور في الغرفة المجاورة! وهل هي حفلة غزل، «وعلى عينك يا تاجر»، كما يقول المثل الشعبي؟

وأي نوع من الرجال هذا السيّد؟... وهو يبدو راضيا، بما يدور أمام سمعه وبصره؟

وكان عليّ أن أتابع المسرحية حتى النهاية، اذ أن قضية كهذه، لا تمرّ من دون استفهام، وربما شكّلت مدخلا لكي أفهم عقلية الناس الذين أتولّى خدمتهم.

http://nj180degree.com

أخيراً، انتهت مهمّة وصل عبوة الغاز، وأشعلتُ عود الثقاب، ولففته حول العزقة، لأختبر انضباطها، وأتأكد بأني أحكمت الوصل، ولن يتسرّب نفس واحد من أنفاس الغاز السام. ثم اختلست نظرة جديدة باتجاه الغرفة المجاورة، قبل أن أودّع المشهد، مغتنماً فرصة خروج الزوج من المطبخ ليحضر لي ثمن الغاز.

أية فرصة هامة أُتيحت لي، كي اتملّى من غرابة ما أشاهد ... ثم لأُدرك أني كنت، لشدّة حماستي وكثافة غبائي، غير مدرك لما يجري هناك، فوقعتُ في سوء التفسير وسوء النوايا في آن!... فالشاب الواقف خلف السيدة، هو هناك لمهمة بعيدة عن ظنوني، ولا علاقة لها بالغزل أو العواطف الملتهبة، اذ تأكّد لي بعد إمعان النظر، انه يقوم بتسريح شعر السيدة. وقد أشرقت تلك الحقيقة دفعة واحدة، حين أبصرته ينتقل من المرحلة الأولى، حين بدا لي أنه يتلمّس جبين المرأة ويمسّد بشرتها، الى مرحلة تالية كان فيها يستخدم عدّة كهربائية، تتألّف من المشط والفرشاة وسائر اللوازم الضرورية لتصفيف الشعر. لكن المناسبة سوف تبقى مسجّلة في ذاكرتي، بل انها لحظة اشراق ووعي، نقلتني من مرحلة السذاجة والغباء الى فهم بعض ما يدور في دواخل البيوت.

قبل أن أتجاوز العتبة، في طريق العودة، كنت أتخذ قراراً اسماً سيبدّل مسار حياتي...

ظلّت الفكرة تطنّ في رأسي، مثل تكّات ساعة، وتلحّ عليّ لأجد وسيلة تقودني الى تلك المهنة، فأصبح حلاقاً نسائياً. وهو طموح كبير لصبي بقال. وكنت أشعر كمن يقف في أسفل الوادي، ونظرُهُ عالقٌ في أعلى ذرى الجبل. إنما تلك المسافة، مهما بعدت، لن تقف بيني وبين الحلم.

* * *

وتبدّلت الدنيا في نظري ... وبات خروجي من الدكان وعودتي اليه، فرصة اغتنمها للبحث عن صالونات الحلاقين، علّي أعثر لدى أحدها على عمل، يكون بدء التحوّل في حياتي.

أبقيت الفكرة سرّاً في الأعماق لا أجرؤ على البوح به. انما تحولتْ الى حافز يحثّني على الجد والعمل. وقد علّمني أبي أن «من جدّ وجد». وها قد أتت الساعة لأضع الكلام في موضع التنفيذ. وعملي المتواضع هذا (صبي الدكان) مهما اجتهدت، لن يأتيني بأكثر من بعض النقود المتواضعة، أحسبها في نهاية يومي، وأخبئها في حقيبة القبو، بين حاجاتي وثيابي، وهي كل ما أملك في هذه الدنيا.

http://nj180degree.com

في الأيام التالية، ركّزت اهتمامي على البحث عن صالونات الحلاقة النسائية. واكتشفت أن هناك عدداً منها، في الحيّ ومحيطه، بينها القديم التقليدي والذي يجرؤ أمرؤ مثلي على أن يطرق بابه ... أما البعض الآخر، فمقرّه العمارات الفخمة، المهيبة والبعيدة عن طموح المساكين.

ولم أجد في نفسي جرأة لأطرق أي باب، مهما بدا متواضعاً، سهل البلوغ، اذ كنت في حاجة الى اكتساب خبرة في التعامل مع الناس، والتحدث اليهم. وبقيتُ فترة مشتت الفكر، موزّع الوعي بين جهات ثلاث: عملي اليومي، النوم في القبو الضيق، والتحليق على أجنحة أحلام ينسجها خيالي.

واعترف، هنا، ولوجه الحق، كم كان لمعلمي من أيادٍ بيضاء، عليّ وعلى توجّهي، وحتى على تحسين نطقي وتهذيب لغتي. صحيح أن راتبي عنده ظلّ متواضعاً، لكني كنت أحصل على ضعفه من المكافآت الخاصة، يُغدقها عليّ السادة، لقاء نقلي الحاجات الى بيوتهم. وكنت أتقبّل القليل منهم مثل الكثير، بالشكر والامتنان.

كما يعود، الى معلمي هذا، كل الفضل في تطوير شخصيتي، وتحسين معرفتي، إذ شجعني على حضور دروس مسائية في اللغات.

وكنت قد بدأت تعلمي في مدرسة القرية، وحصلت على الشهادة الابتدائية، انما كنت أجهل كل اللغات، ما عدا لغتي العربية، وبواسطتها، صرت أحرر رسائل العائلة الى الأقارب في الخارج. كما نهلت في تلك المدرسة الأولى، مبادئ الحساب، وهذا ما أعجب رب العمل، فبات يعتمد عليّ، ويثق بي.

وفي أحد الأيام، وجه اليّ سؤالاً مفاجئاً.:

- هل سبق لك أن درست لغة؟ لغة أجنبية، أعني؟

وأجبت بالنفي، انما راح يخالجني بعض التساؤل، فلماذا يطرح عليّ مثل هذا السؤال؟

وقبل أن أوجه اليه استفهامي سمعته يتابع:

- أقيم بجوارنا مركز لتدريس اللغة الانكليزية، فلماذا لا تسجل اسمك وتكسب لغة جديدة؟ خصوصاً وأن التعليم يبدأ مساءً، بعد أن نقفل الدكان.

حسبت الرجل يهزأ بي، أو يمازحني، ولم يخطر في بالي أنه كان جاداً. كما أني لم أدرك مصدر حماسته، حتى كانت تلك الجلسة الهادئة بيننا، بعد نهار عمل، وباح لي بكثير من خبايا نفسه، والأمور التي كان يتوق الى بلوغها، ولم يتوفر له ذلك، ومن بينها، تعلم لغة أجنبية.

http://nj180degree.com

- انها حسرة في نفسي قال ... و «كل لسان بإنسان» كما يقول المثل.

ولأنه لم يحقق طموحه ذلك، ظل يحمّسني حتى وافقت.

ووجدتني ذات أمسية، أحمل أوراقي وأتوجه الى المدرسة الليلية.

* * *

كان الزملاء خليطاً من الشباب والشابات، ومعظمهم من الطبقة العاملة والتي تطمح الى تحسين أوضاعها ... أي أني لم أشعر بينهم بالغربة، لكني، في الوقت نفسه، لم أنشد الاختلاط بهم خارج وقت الدرس.

مع تقدمي في معرفة اللغة الجديدة، زادت ثقتي بنفسي، خصوصاً وأن المدرسة كانت تشجعني وتمتدح طموحي واجتهادي. وولد في داخلي أمل جديد، في امكان التقدم، والانتقال من موقع صبي الدكان الى ما هو ارقى. ومن يدري؟ فقد يمكنني أن أبلغ غاية طموحي، فأصبح حلاقاً نسائياً مرموقاً.

كان قد مر عامان، على ذلك، حين وجدتني اقرأ، وأحاول كتابة الرسائل بالانكليزية، وكنا نتبادل تلك الرسائل - التمارين - بين زملاء الصف الواحد.

وكتبت معلمتنا، ذات يوم، مثلاً انكليزياً على اللوح الأسود .طلبت مني أن أعرّبه. فوقفت، من دون تردد، وقرأته بالعربية .بصوت عال: «متى وجدت الارادة وجد الطريق الى الوصول». صفقت لي، وهي تقول: «عافاك!... لقد حققت هذا القول بالفعل».

وحين عدت الى نفسي، فكرت في أن معلمتنا تجيد قراءة الأفكار أيضاً، لا تدريس اللغة الانكليزية فقط ... وإلا فكيف، توصلت الى قراءة ما يدور في نفسي، وفي كل خطوة أخطوها؟! ...

غادرت الصف، تلك الليلة، وتلك الكلمات تلاحقني، وكأنها مهماز في الخاصرة، وسمعت صوتاً يطن في أذني:

- أنت وحدك، في وسعك أن تجد الطريق.

* * *

لا يذهب جندي الى القتال إلا بعد أن ينهي تدريبه ويستعد للمواجهة.

- وهل أنت مستعد؟

سألت نفسي، في تلك الصبيحة وانا أقف أمام المرآة الصغيرة المعلقة فوق جدار القبو.

http://nj180degree.com

وسمعتني أرد على صوتي:

- بكل تأكيد.

كان الوجه المطل من المرآة جديداً عليّ، وهو يختلف عن الوجه الأول، الحائر التعابير، فهذا وجه إنسان له ثقة بنفسه وقدراته، وهو ممتلئ بالأمل والطموح.

وكنت، في الليلة السابقة، قد اتخذت القرار بأن أطوف في اليوم التالي، بحثاً عن عمل في صالون حلاق نسائي. ولذلك ارتديت سروالي الجديد، وقميصاً نظيفاً.

ولم تفت معلمي أناقتي غير المعتادة، في أيام العمل، فسألني بين الجد والهزل:

- بشوفك مدوزن شبوبيتك! خير إن شاء الله!

قلت، وأنا أحاول أن اواري الحقيقة:

- ما في غير الخير. ثياب الشغل في الغسيل.

فرد مطمئنا:

- لا تهتم، كنت أمزح معك، في الحقيقة أريدك أن تبقى أنيق المظهر. فالإنسان الذي يهتم بهندامه، يحترم نفسه والآخرين.

ولم نكمل الحوار، اذ بدأ الزبائن يفدون، أو يتصلون تلفونياً ليسجلوا طلباتهم، وهكذا انصرفت الى متابعة عملي المألوف، وقد ولد أمل جديد في ذاتي، مع تصميمي على البحث عن عمل، حالما أنهي مهماتي.

وأخيراً حلت الساعة، وغربت شمس نهاري، فهرعت الى صالون كنت قد عاينته في الجوار.

* * *

وهم الخطوة الأولى: السعي في المجهول، واستنفار الشجاعة كلها لأطرق الباب. وأخيراً تجرأت ونقرت الباب مرتين. فتح لي شاب أنيق، وسيم الشكل، وهفت الى أنفي روائح العطور المختلفة وهب عليّ وهج حار، تبعته نسائم باردة وسمعت صوت الشاب يسألني، وكأنه من مسافة قرون يسأل:

- نعم؟ ماذا تريد؟

انطفأت مصابيح كانت تشرق في عيني، وشعرت بالدم يغور في عروقي، وتلعثم لساني وهو يتأتئ الكلمات:

- أطلب مقابلة رب العمل؟!

- وماذا تريد منه؟

http://nj180degree.com

بادرني بالسؤال فوراً، فقلت:

– أريد أن أسأله عمَّا اذا كان في حاجة الى فتى مثلي، يعمل لديه.

تأمَّلني بنظرات فاحصة، ثم أمرني بالدخول:

– لن نتابع حديثنا على الباب. أدخل.

استبشرت خيراً، ودخلت وأنا أفكر: لو لم أجد رضى في عيني الرجل، لما دعاني الى الدخول.

وتابع المعلم الكبير، في الداخل، اسئلته، حول ما يدفعني الى ولوج هذا المضمار، وتناولت الأجوبة والحجج من أقرب السبل، غير أني لم أشر الى السبب الأساسي الذي دفعني الى حيث كنت واقفاً. وعندما فرغ من استجوابي صرفني قائلاً:

– تعال بعد أسبوع.

لم أكن واثقا، وأنا أودعه وأغادر، بأن طلبه هذا كان صادقاً، أو أنه مجرد كلام يصرف به من يطرقون بابه طلباً للعمل!

وكان عليّ ان انتظر ذلك الأسبوع الصعب، كي ينقضي، وأنا غير متأكد من قبولي. واذا كان كلامه جادا، فكيف أواجه سيدي وربّ عملي، وبماذا أبرر مغادرتي دكانه؟ ثم هناك أمور معيشية،

ان عليّ أن أتدبرها وفي مقدمها البحث عن غرفة صالحة السكن، بدلاً من القبو الذي شغلته طوال سنوات عملي، من دون أجر.

* * *

تحسب أن عبورك دروب الآخرين هو عبور وبالتالي لا يخلف اثراً، وهذا ليس صحيحاً، فكل من تلامسه نظراتنا، أو تصافحه أيدينا أو تحاوره كلماتنا، يصبح قريباً منا، متصلاً بنا عن طريق هذه المعابر كلها، فكيف بمن أطعمك وسقاك وآواك ... ثم قاسمته لحظات حلوة أو مرة، من أوقات حياتك؟!

كنت، في طريق عودتي الى القبو، أعالج هذه الأفكار، وأتساءل: هل سيرضى معلمي عن قراري؟ وهل يبارك خطوتي الجديدة، أم يثور ويغضب ويتهمني بالعقوق؟

لكن الحس الغامض الذي قاد خطواتي، منذ البدء، وغرس في نفسي التوق الى التقدم، وأوصلني الى تلك النقطة من رحلتي عاد يحثني كي أتابع: «متى وجدت الارادة، وجد طريق الوصول».

* * *

كم تبدو بعيدة، تلك اللحظة، حين استفاق الوعي، ويدي

http://nj180degree.com

تعالج أنبوب الغاز، في الأسبوع الأول من وصولي الى بيروت! وكم كان الطريق طويلاً! لكني الآن أسلكه، وبكل ثقة، لأن هناك موعداً آخر بعد أسبوع.

حوارية

أختم على الحكاية بالشمع الأحمر. أخبئها في صندوق مقفل، ثم أطرح الصندوق في البحر.

الأسماك لا تجيد القراءة، الأمواج تمسح الذكريات والموجة التاسعة، حين ترتفع، تبتلع الصندوق.

من يقرأ الحكاية؟ من يحفظها؟

نسجتها رموزاً وألغازاً طوال فترة غيابك، وذات يوم عدت ... من رحلة دهرية عدت ... طرقت الباب وانتصبت مثل نخلة عند الرتاج: وتلك البسمة، بسمتك، حاملة شمس أيار، كانت مفروشة فوق جبينك:

- ها أنذا قد رجعت.

عانقتك. وتناثرت دموعنا. جففنا الدموع وجلسنا، في ركن مسيّج بالياسمين، على شرفة بيتي:

http://nj180degree.com

- كم أنا مشتاقة!...

قلت. وافترّت شفتاك عن بسمة حلوة، وتناثرت كلماتك تختصر المسافات والبعاد. وأجبتك:

- كلّي شوق الى رؤية وجهك.

وجاء ردك:

- وجوه الأحباء لا تفارق، مهما بعدت بها المسافات، ومهما طال أمد الترحيل.

هززت رأسي موافقة:

- وجوه الأحباء لا ترحل، بل تبقى مغروسة في رفيف الأهداب، وفي شغاف القلب.

ثم أضفت:

- يقولون إن الكتابة ثلثا المشاهدة، وأنا كنت أكتب، ولم أنقطع عن مراسلتك.

- وحتى في أحلك الأوقات، وفي ذروة القتال، ظلّت رسائلك تأتي. مثل بيارق العيد تطل، حاملة بين سطورها علامات التفاؤل، وومضات من الندم وتأنيب الضمير ...

واعترضت:

حتى أريح الضمير، رجعت. وكان أول ما فكرت فيه، ..ارتك. قرأت كتابك الأخير من أول سطر حتى آخر كلمة. ..لغلت بين السطور، وأستوقفتني كلمات لم تكتبيها... صحيح، ..اذا تجاهلت الحكاية؟...

أجبت:

- خوفا عليك، ثم إني لم أشأ أن أنتهز فرصة غيابك، فاكتفيت بالتلميح.

- وها أنذا قد عدت، لأفتح معك صفحة جديدة، ولكي أنير ..لك الضوء الأخضر.

سألتك:

- والألم؟... هل يظل ألم الآخرين؟...

تأملتني طويلاً قبل أن تردي بصيغة سؤال:

- وماذا عن الضحايا؟...

* * *

وهل أنت ضحية، يا حنان؟... ضحية من؟... وماذا؟...

http://nj180degree.com

عندما تمتد يد الجزار، وتقترب السكين من عنق النعجة، أو يكون في الذات اللاواعية، لتلك النعجة، نداء صامت الى السكين؟...

نداء، ربما وجد قبل أن تولد النعجة؟...

* * *

وكان الألم مرسوماً فوق جبينك، ويد «الداية» تنتزعك من رحم والدتك، وتمسح عينيك المغمضتين بأصابعها الغليظة والخشنة:

– مخلوقة جميلة، والأيام تنتظرها بشوق ...

قالت.

وسألتها أمك، من عميق آلامها:

– لماذا تنتظرها الأيام؟

– لتقدم لها المجد والألم.

ندت عن الوالدة شهقة خوف:

– أوليس من سبيل لمحو الألم؟.. أيتها «الداية»، يا حافظة الحكمة والتواريخ، أغرسي ألمها، ان استطعت، أغرسيه في أحشائي، أعيديه الى خبايا الرحم...

فهقهت يومها «الداية» مثل ساحرة فوق بئر مرصودة:

أنت تحملين ألمها؟!.. لا، لا. اثنان يحملهما الانسان وحده: ...ره وألمه.

بالخوف والقلق ربتك أمك. وكبرت آية جمال ومرح، ألبستك أجمل الحلل، غذّتك بالعسل واللبن، روتك بقطرات الندى .فرشت لك الدروب بالورد والياسمين:

«إبنتي، ونور عيني،

حبيبتي وولع القلب»

كانت تردد هذا القول، وهي تحملك بين ذراعيها حتى لا تتعب ساقاك، أو تخدش قدميك حصى الطريق ...

أسكنتك غرفة من بلّور ... ومن حبال الشمس جدلت ضفائرك ... من زرقة السماء لوّنت عينيك ...

ومررت أناملها فوق ورود الحديقة قبل أن تمسح بها خدّيك:

«بنتي ونور عيني

حبيبتي وولع القلب».

وصوت «الداية» ظل ينقر على باب الضمير، في ليالي

http://nj180degree.com

الوحشة، حين ينطبق الجفن على الجفن، ويغرق الكيان الملائكي في بئر السكينة والهدوء. وأمك توصد الأبواب، تغلقها بابا خلف باب، ثم ترفع يديها أسواراً حول رأسك، تحميك من كل ضيم.

أين أمك، يا حنان؟..

أين الصوت الممتد بركة ووعوداً حتى نهاية العمر؟...

لقد رَحَلتِ، وتركتها واقفة عند العتبة، ترفع يديها، مظلة فوق العينين، وهي تبتهل اليك، لتبقي.

– «لا بدّ لي من الرحيل، يا أمي!.. المستقبل يناديني»، قلتِ.

لم توقفك. لم توصد الباب.

لم تقل إن المجد يمتزج بالألم.

كانت تصلي، وترجو أن يرتد اليها الألم، يغرز في أحشائها. يملأ فراغاً خلّفته ولادتك في ثنايا الرحم.

لم يكن رحيلك مفاجئاً، فمثلك رحل الآخرون، عندما اندلعت النار وراحت تلتهم المدينة؛ وبقيت هنا جماعة، تشهد ما يجري، وتسجل الشهادة، وتحفظ لك كل ما حدث في اثناء غيابك.

وبقيت هنا، تنتظر عودة الطيور المهاجرة.

* * *

وها قد عدت، مثلما ترجع «طيور ايلول». وكأنما سافرت في موسم الهجرة والرحيل، هرباً من البرد، ومن شح الأرض، وهربا من الجوع والعطش.

وظلت أمك واقفة عند الباب، تحرس الغرف والأسرة الخالية، وترجو أن يرتد اليها الألم، ذات يوم، ألمك بالذات، ويتغلغل في صميم احشائها.

قطفت المجد، يا حنان. تجولت في بلاد الله الواسعة. فرشت جسدك فوق جميع القارات، وتناثرت في عواصم الأرض.

عرفت الزهو والفرح الكبير... وعرفتك الأحزان والمغامرات. فماذا عندك لتخبرينا؟..

– عدت، يا صديقة. وهذا اهم ما عندي وطليعة أخباري، مثل عودة غمامة أثقلها المطر، ومثلما تطلع شمس الصباح، بعد غياب الليل الطويل. وأنا مشتاقة الى كل من عرفت من وجوه، والى كل ما جبت، في طفولتي، من مطارح... فاين الأصدقاء؟ وأين آثار اقدامهم، فوق الدروب؟ أين السهرات فوق مصاطب الصيف،

http://nj180degree.com

والكروم؟... وهل يزور القمر ذكرياته العتيقة؟ ولماذا لم يرفع الناطور عرزاله؟... وهزج الشباب، وترانيم الصبايا.... أين رحلت أيامنا تلك؟... أين خبأت اسرارها؟

وأمك تصلي لأن يرتد الألم، فيما لو هاجمك... يرتد ليتغلغل في أحشائها ويقيم في ثنايا الرحم المهجور.

وأنا قد عدت، يا صديقة. اسأل عن الوجوه الحبيبة ولا أجد الجواب. وأقول: وجوه الأحباء لا ترحل. وأسافر بين الصنوبر والنخيل. أمتطي متن غمامة، أو جناح نسر، وأحلق.

مجداً قطفت، لكني عرفت أيضاً شتى أنواع الألم: الغربة، فراق الارض، عبور البحار المجهولة والتصدّي للغرباء، في البلاد الغريبة، وتلقي صفعاتهم فوق الوجه وبين العينين... والليالي الموحشة، التشرد والضياع، خارج خيمة الحب وأسوار الطمأنينة...

واليوم عدت.

إجمعي لي، يا صديقة، أصحابنا القدامى، من أيام زمان. وجوها أحببناها، وأصواتاً لا تزال عالقة في البال...

والعيون الدافئة...

اجمعي الورد والشوك، وكل الغرس المنتظر، في الحديقة.

كلهم رحلوا.

وأمك واقفة عند الرتاج ترفع كفها مظلة فوق العينين، حتى لا يحرها الشعاع المتشظي عند الأفق.

وأمك تنادي صغار الحي، وتسأل:

- أنظروا ... أو ترون شبحاً قادماً من بعيد، متدثراً بمشالح الغمام؟...

ويرد الصغار مثل «كورس» في مأساة إغريقية:

- نبصرها، قادمة من فوق التلال، من شظايا البرق، من عتمة الليل، ترتدي الليل عباءة، تمتطي جناحي نسر، وصهوة جواد برأسين... وهي مقبلة باتجاهنا، منتصبة القامة كنخلة شامخة، كقبة معبد.

- «هي ابنتي، ونور عيني،

حبيبتي وولع قلبي».

وانتظرتك أمك طويلاً، عند غرفة البلور.

- أين أمي أيتها الصديقة؟ أين الأطفال، وقد انتظروا زماناً عند مطل الوادي، وعند سفوح التلال؟...

http://nj180degree.com

– رحلوا!... مثل رحيل الفراشات. وتغلغلوا بين الأزهار، وضاعوا...

أيار فاجأنا بازهار ورياحين. فرضيت الأرض، وغفرت بعد غضب سنين ... وأخرجت لنا البرقوق والسوسن.

وخرج الصغار يقفزون فوق أعشاب المروج.

– سألتك عن أمي، حارسة غرفة البلور، المتكئة على جدار الانتظار... أمي، هل رافقت يوماً الصغار؟...

– نعم، يا حنان. حتى أمك، أعياها الانتظار. وقد تكون اطمأنت في رؤاها لعودتك تمتطين جناحي نسر، وصهوة جواد برأسين. وتهبطين من ذرى التلال ... عندها، وحسب، لملمت أدواتها ودخلت لتستريح، ثم نامت. ولا تزال، حتى الساعة، غافية تحت أشجار التفاح ...

بطاقة معايدة

عزيزي السيد مونتغومري،

اخترتك، من بين سائر الناس الذين التقيتهم، خلال رحلتي السندبادية الى بلدكم، كي أبعث اليك هذه التحية لمناسبة حلول العام الجديد: ١٩٩٩ .

وأيّ رقم هذا، يا صديقي العزيز؟... ثلاث تسعات دفعة واحدة!... وهل لذلك أيّ معنى في لغة الحظ؟

ولا ننسى أن الرقم، يقربنا خطوات من موعد اقفال القرن العشرين، ثم بدء الحساب والعد بعد الألفين.

لكن، ما لنا وللزمن؟ ولنترك التواريخ والأرقام لحساب الكتب، وأعود أتابع كتابتي اليك، كي أتمنى لك عاماً سعيداً؛ ولأستعيد معك ذكرى لقاء عجيب غريب، جمعنا في أحد شوارع مدينتكم، وبالمصادفة.

http://nj180degree.com

ويا لها من مصادفة!

أتذكر؟

كان نهاري الأول في المدينة. نهضت باكراً، مع زقزقة أول عصفور.

(للمناسبة، لاحظت أن عدد الغربان يفوق عدد العصافير وطيور الحمام في فضاء المدينة... والغراب، بالنسبة الينا، يرمز الى الشؤم بل الموت؛ أما لديكم، فهو مخلوق آخر من جملة المخلوقات المحلقة في فضاء حر، يرحب بها، ويعطيها الأمان، فلا يسمح لصياد، أو ليد معتدية، باغتيال مرحها).

كان الجو دافئاً، يغري برياضة «الجوكينغ» (نحن نسميها هرولة) فخرجت أجتاز المسافات بفرح، معجباً بتلك الفسحة الشاسعة المتاحة لهواة الجري، أو السير الحالم، لا فرق ... شوارع عريضة، محاطة بأرصفة نظيفة وحولها مساحات مغروسة بالأشجار أو بالعشب الأخضر، المحلوق حلاقة أنيقة. وتمتد تلك الأرصفة الى ما لا نهاية. وأحياناً، تعرج على نهر أو بحيرة، فيتوقف الرياضي ليرتاح فوق أحد المقاعد الخشبية الموزعة في عباب الغاب، أو المنتشرة حول استدارة البحيرة؛ واذا كان من

النوع الخيالي الحالم، يطيب له الجلوس، بَعضَ الوقت، يتأمل طيور البط والأوز البرّي تمارس رياضتها المفضلة فوق صفحة المياه الهادئة، أو يتابع حركة السناجب تجري برشاقة، وتتلوى فوق جذوع شجر القيقب، قبل أن تحملها قفزاتها السريعة بين كثافة الأغصان... وعلى مسافة قريبة منها، تتعارك الأرانب أو تختبئ الغزلان، مثل النساء المخدرات، تراقب الحركة، من خلال ثقوب، تخرق الكثافة الخضراء.

المشهد متحرك، متموج يكاد ينسيك غاية خروجك في تلك الساعة المبكرة من نهارك، لكن للرياضة أحكامها. وهكذا انسقت مع حماستي وشوقي الى معانقة الطبيعة، فرحت أمشي ولا أتعب. وفي يقيني أني ألفُّ وأدور حول الحي الذي أسكنه منذ الليلة البارحة فقط.

ولم يكن الاغراء محصوراً في المناظر الطبيعية، والمدى الحر الذي ينسيك حدود جسدك، بل أحسسته يخترق أفكاري، وينتزعني من ذاتي، ويغزو مناطق الصمت في كياني، فإذا بي أصبح أسير ذلك السحر كله، واذا بي:

– أين وصلت؟... وأين انا؟...

هكذا صرخت في المدى الممتد أمام ناظري، وقد سيطر عليّ

http://nj180degree.com

الهلع، عندما أطلت عليّ، من بعيد، عمارات شاهقة، وناطحات سحاب، تشير الى أني تجاوزت حدود الحيّ، بل حدود المنطقة، وبتّ في مكان من المدينة، غريب ومجهول، وأنا أعزل من أي دليل ... اذ لم يكن في يدي خريطة تحدد معالم المكان، ولا في جيبي نقود تساعدني في الانتقال، وبالطبع، أنا الرياضي الشاطر، لم أحسب مطلقاً حساب العودة في تاكسي أجرة أو أوتوبيس. كذلك، فقدت كلياً وجهة سيري وتهت في ضياع فكري ومكاني.

وفيما أنا أحاول النهوض من نوبة الضياع تلك، ومن خيبتي بالمارة، في سياراتهم المنطلقة كأسهم تنشد أهدافها، أطللت أنت، في شاحنة ضخمة، مخصصة لتوزيع الصحف. وامتثلت لإشارتي، فأوقفت العربة، وأصغيت الي، اشرح لك واقع الحال. وعندما أنهيت، قلت لي، مبدياً أسفك:

– ولكنها سيارة شحن مخصصة للبضائع، وممنوع عليّ نقل الركاب.

وتلاشى أمل طفل، كان قد استفاق في كياني. وبدأت من جديد، أسقط في اليأس والحيرة، خصوصاً عندما لمحت يدك، تقفل الزجاج بيننا، قبل أن تنطلق وتخلفني غارقاً في خيبتي.

لكن ثمة حركة لاحقة، قمت بها، ولم يكن لديّ الوقت لفهمها: رأيتك فجأة تشد كوابح الشاحنة وتفتح الباب وصوتك ينادي بلغتك، وبلهجة مهذبة:

– «سير» أصعد من فضلك ... أصعد هنا، بقربي.

قفزت برشاقة مغتنماً تلك الفرصة، وقبل أن تبدل رأيك وتضيع من يدي سانحة الانقاذ. ثم سمعتك تتابع كلامك:

– محظور علينا حمل ركاب، ارجو ان تجلس على الدرجة المنخفضة بقربي، نعم، هكذا، حتى لا يلمحك شرطي السير.

لم أدرِ ماذا أقول لك في تلك اللحظة، اذ أنك لم تتقدم لمساعدتي، وحسب، بل أنك عرّضت نفسك وسيارتك للمخالفة، وأنت ستكون المسؤول وتدفع الثمن، في حال أوقفوك...

ومن ذلك المقعد المنخفض رحت أتأمل وجهك. الجانب الأيمن منه، بكل الغضون والتجاعيد التي جعلت منه حقلاً بركانياً، حادق السواد، ويكاد يفيض بمخزون دفئه. بينما بدا الشعر الكث الأبيض، فوق هامتك، ثلجاً ناصعاً يعلو قمة شامخة.

وحين تجاوزت المشهد الخارجي، عن طريق الحس، والذبذبات الروحية، غصت في بحر من الدفء الانساني.

http://nj180degree.com

لن أنسى مطلقاً تعابير وجهك أو نغمة صوتك في تلك الدقائق القليلة التي جمعتنا. وحين سألت عن عنوان منزلي، لم تكن تقصد ما يعنيه السؤال لو جاء من سواك، أو أنطلق من مفهوم مجتمعكم، أي لتؤكّد أنّ لي بيتاً، ولست مشرداً أو قاطع طرق، لجأ الى الحيلة ليلحق بك الأذى ... كنت، بكل بساطة تريد معرفة عنواني لتقودني اليه، وتطلب رقم تلفوني كي تربطني بالعائلة.

تأكد لي ذلك عندما سحبت من أحد جيوب العربة جهاز التلفون المحمول، وطلبت رقم البيت، فردت عليك زوجتي وكانت في غاية القلق والاضطراب... وحين سمعتك تقول:

– زوجك برفقتي، لا تخافي يا سيدتي ...

حين سمعت زوجتي تلك العبارة خافت مرتين، اذ حسبتك طبيباً يحدثها من غرفة الطوارئ، بَعدَ تعرضي لحادث ما ... أو شرطياً يكلمها من دائرة المخفر، بعد ما قبض عليّ، أثر تعرضي لحادث... ولم تخرج من نوبة القلق الا بعدما سمعت صوتي يخبرها، باختصار، بعض أطراف القصة..

يا صديقي العزيز مونتغومري، أَبيتَ الا أن توصلني الى باب

...ت، وزودتني بنسخة من الصحيفة اليومية، ولما أعدتها اليك ...دم توفر المال لديّ، ابتسمت وقلت:

هذه هدية، على الحساب.

صافحتك بحرارة مودعاً، وآملاً أن نلتقي ثانية، أما عبارة ...داعك فكانت:

– إياك أن تضيع مرة أخرى ...

كنت توصيني، مداعباً، قبل أن تنطلق لمتابعة توزيع الصحف.

* * *

وعدنا فالتقينا، فأنا لم أتب عن المغامرات الصباحية وأنت مثابر على تلبية متطلبات وظيفتك، تقود الشاحنة، عابراً بها شوارع المدينة، لتوصل الصحف باكراً، وفي الميعاد المنتظر.

وفي هذه المرة التقينا كصديقين، وبادرتني بالسلام، مرفقاً بعدد من الصحيفة. ومن جديد اعتذرت عن قبوله، بسبب النقود، ورفضت عذري.

في اليوم التالي، صممت على التزود ببعض النقود، ثمن الصحيفة على الأقل، لكي أدفع لك حساب الأمس، واليوم. غير أنك لم تأت. وبحثت عنك في الأيام التالية، وطوال فترة اقامتي

http://nj180degree.com

في المدينة، غير أن الحظ لم يعد يحالفني... وهكذا، رجعت الى وطني، وفي عنقي هذا الدين الجديد، إضافة الى الدين الأول الذي لن أنساه...

* * *

والآن، وفيما يخطر في بالي الاتصال بك بواسطة هذه البطاقة، اتساءل عمَّا اذا كانت بطاقتي هذه ستصلك، اذ جاء لقاؤنا سريعاً، وعابراً، لقاء مصادفة. ولم نفطن خلاله لتبادل العناوين.

لكن عدة أسئلة تطوقني في هذه اللحظات، فيما اقترب من خاتمة الرسالة، فدعني أطرحها عليك:

* السؤال الأول يتعلق بتلك الخطوة التي جازفت بها، فما الذي جعلك تخالف القانون وتلتقط رجلاً مجهولاً، عن قارعة الطريق، معرضاً نفسك للمخالفة، وربما لمخاطر المجهول؟! أترى أصلك الأفريقي والقهر التاريخي جعلاك تناصر الإنسان، أياً كان، حين تجده في مناطق الضعف والعجز؟

* أما السؤال الثاني فعن علاقة اسمك باسم المارشال البريطاني برنارد أو مونتغومري، هازم رومل وجيشه الأسطوري في حرب العلمين بمصر عام ١٩٤٢، والمشارك في بطولة الانزال على

...واحل النورماندي بعد ذلك التاريخ بعامين؟... أم أن التسمية مستقاة من اسم المدينة الأميركية عاصمة ولاية ألاباما؟

* وهل كان اندفاعك للمساعدة صادراً عن طبيعة انسانية، متجذرة فيك، وتتجاوز الفوارق التي تقسم البشر فئات واتجاهات؟

* وأخيراً، ما هي تلك المصادفة التي قادتك الى طريقي؟ وهل هي مصادفة حقاً؟

لا أطلب منك جواباً، فهناك أسئلة كثيرة نطرحها ولا نبحث لها عن جواب أو لا نجد لها، في حدود معرفتنا، جواباً فتبقى تطن في فراغ وجودنا، لأن الاجابة عنها قد تفقدها سحرها...

http://nj180degree.com

رحلة فوق النيل ...
والصور متقاطعة

قال لي المصور الذي قام بتظهير الفيلم في ذلك الحين:

- أتلفيها ... لا لزوم لها، إذ ليست هناك صورة واحدة تُرضي النظر أو تحمل للمُشاهد أي معنى.

تناولت الغلاف من يده ولم أعلق على كلامه، أو أناقش قوله.

كنت أشعر بالحزن لأن تلك الرحلة الفريدة فوق صفحة **النيل**، من **القاهرة** الى **أسوان** لن تكون مسجّلة، مثلما حلمت بها، في «ألبوم» الرحلات.

تحسّست الغلاف المنتفخ بيدي وقررت بيني وبين ذاتي:

- لن أتلفها، لا ... سوف أدرسها جيداً، فربما وجدت صورة واحدة تحفظ ذكريات تلك الرحلة ...

http://nj180degree.com

وهذا ما فعلته لدى وصولي الى البيت. انتحيت ركنا من قاعة الجلوس، ورحت أستعرض تلك الصور، والندم يسيطر على الوعي، والحزن يتغلغل حتى الاعماق:

– خسارة ... تلك الرحلة كلها ... تلك الصور، خسارة!

لم تكن واحدة منها واضحة، والذي حدث، أن المصور ارتكب خطأً حين عرّض الفيلم للتصوير مرتين، أي أن رحلة النيل سُجلت على فيلم يحمل صوراً لحفلة سابقة ولمناسبات عائلية منوعة، بينها مأدبة عشاء مع أصدقاء الغربة، ولقاء آخر وصديقات حول فنجان شاي. بالتأكيد تلك الصور مرشحة كلها للإتلاف، فالمصور على حق.

لكني بقيت في موقع التردد، فوضعتها في درج مكتبي وأنا أفكر:

– لتبق هنا. لن يُضير أحداً بقاؤها في هذا الدرج المغلق ... أقنعت نفسي بذلك ثم نسيتها.

* * *

ولست أدري ما الذي جعلني أفتح الدرج صباح هذا اليوم، وأخرج الغلاف، فتنهض الصور والذكريات. أشاهدها مسلسلة

مثل فيلم خرافي من أعمال المخرج «**فلليني**»، تختلط فيها الأمكنة والأحداث، بالوجوه لتعطي هذه النتيجة الخارقة.

وأبصر لوحة فرعونية نقشت فوقها الأحرف «**الهيروغليفية**» التي لا أفهمها، وهي ممددة على مائدة الطعام بين أطباق التبولة والحمص والمتبل.

وأذكر أنَّ العشاء، في تلك الليلة، كان في بيتنا وقد ضم بعض الأصدقاء... وألمح «**هدى**» و«**لينا**» في الخلفية، وبينهما وقف «**وليد**»، دليل رحلتنا على الباخرة «**نفرتيتي**»، مع العلم والسارية ... وهدى كانت تنحني أمام المائدة، تتناول ملعقة حمص بطحينة من القصعة وتسكبها في صحنها، وبدا خلفها ذلك الصحفي اللبناني الذي زارنا مصادفة تلك الليلة؛ أذكر أنه مرّ من دون ميعاد فاستبقيناه للعشاء. وبدت قبالته المائدة، اعرفها من المفرش الدمقسي بألوانه الزاهية وقارورة الورد تزين الركن خلفها، والصحافي يجلس فوق أريكة في الصالون. لكن المسند خلفه قطعة من قبر اخناتون، ورفاق رحلة النيل، يطوّقونه. وأنا اعرف جيداً، كما أذكر تماماً أنه لم يلتق بهم، إذ جاء يزورنا في زمن آخر.

في الصورة التالية المح لوحة لفنان لبناني، اغتالته شظيّة، وقد

http://nj180degree.com

حصلت عليها من السيدة التي نظمت معرضه الأخير في **بيروت**. لوحة البحر والسماء الزرقاء عند شاطئ **السعديات**... بدت معلقة فوق بوابة «**ابو سنبل**».

وفي قلب البحر أرى **نورما ومايك**، أصدقاء أيام زمان، وهما يجلسان على سطح الباخرة حول «**بيسين**» السباحة والباخرة فندق عائم، بخمس نجوم، يتهادى على صفحة مياه النيل.

لكن سقف الباخرة يتوارى خلف نقوش فرعونية محاطة بمصابيح كهرباء، مضاءة. تُرى، هل عرف الفراعنة الكهرباء في زمانهم؟ وهل استخدموها في اضاءة قبورهم؟...

والمقعد الذي تجلس فوقه **نورما** يبدو مشجّرا مزهراً، يلفه القماش الذي صنعته **سيلڤا** في المزرعة لستائر الإستراحة: فكيف، ومتى صممت **سيلڤا** دور سكن للفراعنة؟ ام انني نسيت اسم دار التصميم التي أنشأتها وأطلقت عليها إسم **عشتروت**؟.. **وعشتار** عاصرت بعض السلالات الفرعونية، وربما حصل تبادل فني تجاري ... أو هذا ما يوحي به هذا التمازج.

أحاول أن أقنع نفسي، ثم أنتقل الى المشهد في الصورة التالية، فيطل علي من جديد وجه **مايك** بنظارتيه الطبيتين، وقد شع

منهما **توت عنخ آمون** مستنداً بإحدى يديه الى مائدة الطعام. وحول المائدة أتعرف وجوه الأصدقاء: **ليلى، سابا وجمانة، وكانت تلك مناسبة أخرى. وجمانة** ترافق ابنتها من لبنان، وهي ليست خادمة الهيكل، ولا وصيفة **حتشبسوت**، الملكة التي حكمت واحدة وعشرين سنة، وكانت بقوة الفرعون، ثم تركت من بعدها الأمجاد تحدث عنها. وفي حين تغمر **جمانة** ابنتها **هالة** تظهر وكأنها تغمر طيف الذبيحة أمام **خفرع**...

* * *

وتعود **نورما** في صورة جديدة، والى جانبها قبطان «المعدية» (السفينة -- العبّارة) التي تنقل الناس وأحياناً الحيوانات، بين ضفتي النيل في منطقة **الأقصر**. وعمامة القبطان البيضاء ترتفع فوق وجهه الحاد المكتوي بحرارة الشمس الحارقة، وشارباه المعقوفان يرتعشان كلما تحركت يده حول المقرد، وتبقى نظراته الثاقبة تخترق المسافات وكأنها تعبر بوابات التاريخ.

لكن **نورما**، الواقفة فوق الدكة لتلك «المعدية»، تبدو في الوقت نفسه خارجة من القبور في وادي الملكات، حيث لا تزال الحفريات، وأكوام الحجارة والرمال، ووعود بنبش قبور غير معروفة... ثم لا يلبث وجه **نورما** الضاحك أن يتداخل مع وجه

http://nj180degree.com

حتشبسوت وأمامهما النافخات بالمزمار والنائحات ضاربات الأوتار يرافقن نعش **خوفو** نحو قصر الموتى. وأبصر قناع **أنوبيس**، قناع الموت، يحمله أحد الكهنة. فمتى سارت صديقتي في جنازة **خوفو**؟ وأية علاقة تربطها بالمكان، وهي التي سحبت خيالها من جميع الأمكنة الغابرة؟...

* * *

أعود الى صورة من مأدبة العشاء بدا فيها **رمزي** جالساً فوق أريكة «**الساتان السومون**» في شقة مدام **ليلى**. وكانت الشقة المفروشة الأولى التي احتوتنا في منطقة المهندسين بالقاهرة. أعرف فرش الصالون، من الأطر المذهبة، ولون القماش. أكدت لي مدام ليلى عدة مرات أنها، عندما نوت أن تفرش الشقة، وكانت في أوج السعادة والعز الزوجي، اختارت اللون **السومون** الذي تحبه كثيراً... لكنها، وبعد وفاة الزوج، اضطرت الى أن تؤجر الشقة، وتسكن مع أهلها لتؤمن دخلاً يساعدها في تربية ولديها. لكن الشقة، كما أذكر وأعرف جيداً، كانت في شارع **وادي النيل**، لا في **شارع الأقصر** البادي من خلف الستائر الشفافة، المطرزة بالفراش والعصافير... وتبدو البضائع المعروضة، لتجذب السياح، من مصنوعات مدينة الأقصر، وأصحابها الرجال والنساء، طوال

القدود، يقفون أمام الأكشاك، مثل الرماح، وأعينهم المتميزة بالحيوية والجمال، توزّع سحرها في كل الجهات. يتقدم أحدهم، بجلابيته البيضاء، والعمامة البلدية، وقد لف حولها الشال، وتركه يترنح على كتفيه «للغندرة».

يتكرر صالون **مدام ليلى** في صورة جديدة، وقد غرست في وسطه نخلة تفرش سعفاتها مثل مظلة، وتحتضن صاحب الدار، وهو غير مبال لموقعه، ولا يلتفت أو يتعجب من المشهد الملاصق لكتفه وفيه يقف **حورس بين أيزيس**، أمه، **ونفرتاري**.

* * *

يتكرر مشهد المائدة، وقد صفّت فوقها قدور فخار اخترتها من مخزن الزمالك، وفضّلتها على أواني «البورسلين» لأن الفخار يحمل الفة التراب ودفء المكان ثم لأنها تحفظ للطعام حرارته مدة أطول. وحول القدور أطباق متعددة، تحوي الخضار، والزيتون والتوابل. لكن الجدار خلف المائدة مزخرف بنقوش ورسوم منها لراقصات المعبد، وقد انفصلت ساق أحداهن وتمددت فوق القدور، لكنها، وكأنما بقوة سحر عجيبة، بقيت متصلة بخيط من نور مع جسم الأميرة الجالسة فوق العرش.

http://nj180degree.com

وفي هذه «الحشرة» تعود **نورما**، من زاوية الصورة. وجهها يطل، وكأنما يتفقد المكان والزمان.

أين أصبحت **نورما** الآن؟ في **نيويورك**؟ في **الخليج**؟ في **توموباكتو**؟... من يقوى على الإجابة عن أفراد عائلة بعثرتها الحرب؟... وكانت من خلال صورها، المأخوذة من رحلة النيل تثبت حضورها وابتسامتها وحيويتها المتمازجة مع صور من التاريخ، إما لتمثال من معبد الكرنك، او لنقوش محفورة بدقة، تؤرخ للفراعنة، ونظام حياتهم!...

* * *

أتناول الصورة التالية وكأنها مزاح يعبث بكل شيء: طبق الخس ومعه كؤوس الشراب، تحت ساقي **سلوى**، مع أنها تحمل الطبق بإحدى يديها، وتهم بتناول الطعام، لكن إذا حدقنا بدقة، نبصر رامي **القوس** خارجاً من طرف قدمها. وقد علا رأسها جدار لأحد هياكل **الأقصر**، بينما بدت من الجهة الثانية اعمدة **حارمحب**.

وسلوى مرتاحة، تبتسم، بينما يتربّع طبق التبولة على قامة صبية ترتدي بلوزة حمراء اللون، وقد أمحى رأسها تماماً، أحاول

أن اتذكرها: أو تكون **جميلة**؟ أم **بريجيت** التي زارتنا مرة واحدة فقط؟... وهل طرف كتفي، الذي أحدده من لون القميص، هو لي في حفلة العشاء أم في مطعم الباخرة؟ ولكن اليد الممتدة من الكتف، ليست يدي أجزم بذلك من لون طلاء أظافرها، الفاقع الحمرة. وأعود أتساءل: يد من هذه يا ترى؟

تضيع في الصورة التالية معالم الضيفة المجهولة، **وسلوى** واقفة، خلف جدار عند احدى المحطات فوق النيل، حيث تتوقف السفينة العائمة، لبعض الوقت، ويهبط منها الركاب، للتجوّل بين المعالم التاريخية: أو كانت تلك المحطة قرب معبد **ابو سنبل**؟ **إسنه**؟ **إدفو**؟... لا اذكر تماماً، لأن المشاهد تختلط بالوجوه. والماضي يطل من الحاضر، ويصبح الزمن واحداً موحداً في الصور. ثم تعود الحوريات، بلباسهن الفرعوني الأنيق، وقاماتهن المشيقة، فيجلسن فوق الدكة، حول **بيسين** السباحة. وقد ارتدين غلالات التاريخ لاخفاء عريهن. ثم تخرج **إيزيس** بثوبها الوردي الموشى بالذهب، بهيا، متألقا، وقد سكبت فوقه صفحة من الماضي المجهول مسجلة بأحرف فرعونية، تعمق تواصل المرأة وتجذرها، في الحضارة وفي التاريخ. وتبدو من الطرف الآخر قوارب الصيادين، وقد اصطفت عند طرفي شواطئ الجزيرة

http://nj180degree.com

المتداخلة، مثل لسان جريء في قلب الإمتداد الأزرق. وبين القارب والآخر، بدت الشجيرات البحرية، متواضعة، محنية الرؤوس، وكأنها في نوبة خضوع لسيدها **النيل**.

وتبدو في الخلفية أشجار سامقة، سقطت من كوكب مجهول، وراحت تتعانق ورمال الصحراء، لكن السيدة الجالسة على الكرسي، رافعة طفلتها فوق حضنها، تقطع تواصل الأشجار، وقد جلس الآخر، قبالتها. وجهه واضح تماماً. لكن معالم شخصه ضاعت من الذاكرة. لماذا تحتفظ الصورة بكل التفاصيل؟ وهذا التفصيل الصغير في السجادة العجمية، يردني الى البيت، والى تلك السهرة. واتساءل: كيف فرشت السجادة على صفحة النيل؟! ومن حمل تمثال **ابو الهول** ليرفعه فوقها؟ وهل يعقل أن يهجر **السفنكس** قاعدته الخالدة؟...

وأشعر بأن التاريخ قد هاجر، وترك فتاته موزعاً في هذه الصور المحيرة، والتي تجمع الأمكنة والأزمنة من دون وعي أو تنسيق: البيت القاهري والضيوف من لبنان: **غسان ونجلا وفؤاد**. ثم الفندق العائم، وفي الفضاء رأس الملكة الجميلة **نفرتيتي** وحشود السياح... ووجهي يطل من الزاوية، وكأنما ليشهد على الفراغ، وتبقى الدهشة في العينين والتساؤل الكبير: أين أنا؟..

وألاحظ، وكأنما جاءت بعد تفكير طويل ومتردد، إحدى صفحات **النيل** مثلما هو لونه النقي وهو يقترب من سد **أسوان**. في هذه **لينا** وطفلتها، تجلسان على صفحة الماء، وقد خرج وجه ذلك الرجل من إحدى كتفيها، بينما تمتد المائدة في الفضاء. وثمة سيدات منهمكات بالحديث، وحديثهن يوحي بالمرح، اذ أن وجه **ليلى**، وهو الأوضح، يرتدي ابتسامة؛ ويعود غسان في صورة واضحة، يجلس وفي يده وعاء، بينما يده الثانية تحط على خصر وكتفه تستند الى نظارات **مارغو** - يا للمشهد الطريف! - وخلفه المطعم العائم، وتمثال **نفرتيتي** والفضاء غير المحدود، الذي يتجاوز شاطئ النيل يُرحل في التاريخ. وأتذكر أنّ **غسان**، لم يرافقنا في تلك الرحلة، ولا جاءت تلك الفتاة الكندية، ذات القميص الأبيض والتنورة الحمراء، **بريجيت** كان اسمها. وكانت في زيارة للقاهرة، وقد حملت الي رسالة من «طيور أيلول» المهاجرة الى وطنها، ولم تكن تحلم **بريجيت**، بأن تلتقي **نفرتيتي** هكذا من دون عناء، وكأنها رفيقة رحلتها. وفي صور تالية تبدو الكراسي متشابكة، متواصلة، وبينها طاولات مستديرة، وليس هناك سوى ذلك الغريب واقفاً يتأمل الأفق، حيث بدت الفنادق الحديثة وتلال الرمال وقطعة منفصلة من هياكل الأقصر، وهي

http://nj180degree.com

عائمة فوق الماء، وأمامها لوحة النائحات، ضاربات الأوتار ونافخات المزمار، يرافقن نعش **فرعون** آخر نحو قصر الموتى.

وتختلط في مشهد آخر الأشجار، بمساكن الفلاحين، ويطل وجه **رييكا** الشقراء وخصلة من شعرها طائرة في الهواء. أما الوجوه الباقية فهي لفلاحات يغسلن الثياب على حافة النيل، غير مباليات بقناع **أنوبيس**، قناع الموت، ولا بالتمثال ذي الهيبة والوقار، **لرمسيس** الثاني، وشارة السطوة والقوة، وهو يقف على عتبة المجد ...

وتعود صورتي، في مشهد جديد وأنا استند الى جدار، وفي حضني كومة حجارة عتيقة، هي من بعض الركام الذي خلفه الغزر المتواصل عبر التاريخ. ويقف رفيقي، مثل عِثكال تمر ناضج، ومرتاح في حلاوة نضجه. ويجلس قربنا ذاك الذي نبت له مع مرور الوقت، قرنان. وهما غير قرني الاسكندر. عجيب أني لم المح قرنيه من قبل، وها الصورة تظهرهما وتؤكد سلوكه الشبيه بسلوك تيس ... والقرنان مغلفان بسعف نخيل، يبقى عاجزاً عن تغليف القسوة بالدفء والحنان. «أضرب وأهرب» سمعته يقول لدى لقائنا الأول – «و ... اهرب بأسرع وقت ...» ظل يؤكد ذلك وهو يشقع المال، ويمتص دم الضعفاء ليزيد من قوة سطوته وحضوره – أذكر أني

صدمت حين سمعت حديثه، لكن المرحلة التالية الحاملة عنوان الانفتاح جاءت لتعمّق فلسفته، وتقوي ضربه في صدور العمال والفلاحين، يستل، من قلوبهم، الذهب مع الدم الحار ثم يحول ثروته الى مصارف الخارج ... رجل الأعمال الذكي. نعم، كلهم أذكياء أولئك الرجال الذين تخلّوا عن نبض القلب، واستبدلوا به الاسنان الحادة، والمخالب النهمة ... رجال الأعمال الشطّار!... كم كانت ذكية، ابنة الجيران التي أحبته في مطالع الشباب، ثم اكتشفت حقيقته، وهربت، لتحتمي بفلاح فقير، بنى لها بيتاً – بين ضلوع صدره – وعوّضها من الذهب، بنور الشمس، وتغريد البلابل. وأتساءل: هل يمكن أن يتجسّد العصر كله في رجل؟...

رجل واحد، يختصر المراحل والأزمنة التي أوصلتنا الى هذا المهوار؟...

* * *

ما بالي سهوت عن صورة **حوريمحب**، تظهر ناتئة فوق قبره وأسرى الملك الأسيويين، تلف الحبال أعناقهم وتكبل أيديهم وهم في مكانهم، حيث جسّدهم الفنان، في صلب الحجر. وحاملات الأضاحي، والتماثيل الرشيقة نحتت بدقة، وقد برزت الخصور وأسرار الجمال الناعم.

http://nj180degree.com

ولا يلبث أن يظهر رأس **حتشبسوت**، مطلاً من صورة جديدة فتخضع سائر المخلوقات لعينيها الواسعتين وأنفها الأبي الأشم والفم الحساس يكاد ينفتح لقبلة الحبيب.

لكن اعمدة الأقصر الخالد، تعود فتلتف من حولها، بحجارتها الرملية المائلة الى حمرة الشفق لدى الغروب، وزهرة اللوتس تعلوها هدية النيل اليها ورمز البهاء والأرستوقراطية وهي تحمل بصمات مهندس بارع، وفنان عتيق من عهد «توت عنخ آمون». ولا تضاهيها في البهاء سوى اعمدة **حوريس**.

نعم، هذا هو **حوريس**، لكن وجهه لا يلبث أن يتوارى خلف وجه **بريجيت** الكندية وهي منحنية على طبق حمص وتبولة.

* * *

أعود الآن لأقفل هذا الغلاف الذي يضم تلك الأحاجي والألغاز، وأفكر في أن المصور كان على حق، فلتبق هذه الصور في الدرج الى ما شاء الله. ثم استنفر ما تبقى من الطاقات الواعية واللاواعية لعلّ في نهوضها شرحاً لهذا التقاطع العجيب بين الناس، الأزمنة، والمطارح.

اللص!

هذا هو إذاً، اللص الذي يطرق الباب عند انتصاف الليل؛ وقد جاء، في أثناء غيابي، دخل من شقّ الباب، من الباب السرّي ووضع يده الفولاذية الباردة فوق جبينك.

* * *

لم نكن في الدار.

كنتَ وحدك ولم تجزع.

حسبتَه الصديق. وهو جاءك متخفياً في ثياب صديق.

كنتَ غارقاً في النوم، ولما فتحت عينيك، أبصرته ينحني فوقك، وابتسمت ابتسامتك الساخرة من كل شيء، لكنه أطبقَ بيده فَمَك، وضمّ الشفة الى الشفة.

* * *

http://nj180degree.com

كانت الساعة تميل الى الرحيل والشمس تتكئ عند الأفق الغربي تلوّح بشالها المقصّب.

ومن شقّ النافذة بجوار سريرك انسلّ خيط رفيع وغسل بنوره جبينك ثم نسي أن يرحل. وبقيت فوق وجنتيك هذه «المشحة» الصفراء الحالمة.

* * *

وكان ذلك مساء الأحد، الناس خرجوا من المعابد، عادوا من الحقول رجعوا أسراباً على دروب الكروم وكانت تصلك من أصواتهم الأصداء، متشابكة، تكاد لا تفهم.

وبرغم ذلك، كنت مصغياً، وبكل انتباه، وكنت منصتاً الى صوتٍ بالذات، طالما انتظرته، وكان الحدس يؤكد لك:

– سوف يأتي. وهو قادم من جهة الغرب.

قلت لي ذات يوم: الأحباء يأتون من جهة الغرب.

لماذا؟

لماذا تطل الطريق من ناحية غروب الشمس؟ لم يطرح، قبلك، أحد مثل هذا السؤال. كانوا يلتمسون الطرق، فتجري بهم. تقودهم، وهم لا يسألون.

وحدها الطريق تدلّهم الى أين...

وأنت، في تلك العشية، كنت تنصت الى خطى قادمة من الغرب.

* * *

آه من سقوط الذاكرة!

نعم نسيت.

نسيت أنه في يوم، وبينما كانوا قادمين من الطريق، تلك الممعنة امتداداً باتجاه الغرب، وفيما كانوا يجتازون الطريق هزجاً، انصبّت عليهم نار جهنّم...

اندلقت ألسن اللهب من كل سماء، من كل مرتفع، وتفرّقوا... ولم يعودوا يعرفون جهة الخلاص...

احترق منهم من احترق. والذين نجوا لم يعودوا يجرؤون على التلفّت صوب ناحية الغرب.

* * *

قال كبير في القرية:

علينا أن نجد مساراً جديداً ...

http://nj180degree.com

واتجه بنظره صوب شروق الشمس. وكانت ترتفع، بين مدى العينين، وإطلالة الكرة النارية.

كانت ترتفع تلال وجبال.

سأله طفل: «كيف نتجاوز التلال؟ لا بساط سحرٍ لدينا، ولا صاروخ».

فابتسم الكبير وأجاب:

- الأمر بسيط. وما لكم سوى الانتظار.

* * *

بعد أيام بدأت العربات تصل من الشرق.

واعتاد الناس أن يديروا رؤوسهم في ذلك الاتجاه، كلما سمعوا هدير محرّكات.

* * *

وأنت، كنت على يقين من التحوّل الذي حدث. لكنك نسيته لحظات. لذا أبصرتك تدير رأسك صوب الجدار الغربي وتصغي ...

وكان خبط أقدامٍ يرسل صداه من مطارح بعيدة.

* * *

التفتّ اليّ تسألني:

- متى يصلون؟

أجبتُ: «لست أدري. لم يعيّنوا ساعة الوصول».

فقلتَ: «لكنهم لن ينتظروا ساعة الغروب. يجب أن يصلوا في أية لحظة، فقد انتظرتهم طويلاً». قلتُ لك: «ننتظر بعض الوقت. لا يزال النور منتشراً في الجوار، فوق الربى والتلال» ...

* * *

دخلت امرأة تتشح بالسواد.

امرأة، طويلة القامة دخلت، صامتة، وجلست قبالتك من دون أن تلقي السلام. بَدَوْتَ وكأنك لم تبصر قدومها وهي ظلت صامتة، ساكنة، حتى ما بعد رحيل الشمس!

عند ذاك، وقفتْ، واتجهتْ صوبك. هرعتُ اليها وسألت:

- ماذا تريدين؟

تأمّلتني ولم تردّ. ثم تابعت اقترابها منك ووقفت أمامك وكأنما لتلفتك اليها وتمتمت شفتاها:

- أنا هنا.

http://nj180degree.com

وأنت لم تنبس بحرف. انتظرتُ أن تغادرك المرأة الغريبة. رحتُ أعدّ اللحظات ودقات قلبي، كنت أرجو منها أن ترحل ... تتركك وحدك، وترحل من دون ضجيج أو إزعاج وكأنها قرأت أفكاري، حوّلت نظراتها إليّ وقالت من دون كلام:

- أبقى هنا، ما دام هو هنا ...

شئت ان أسألها:

- ومن أنتِ؟ من تكونين؟

لكن السؤال ارتدّ عن حدود الشفتين.

- أعرفكِ من زمان، أوليس كذلك؟

فاجأتني عبارتك. كنت تتأمل وجه المرأة، ولما تأكدت لك معرفتها أرسلت عبارتك تلك.

قالت ابتسامتها:

- تعرفني من زمان.

وسألتَها:

- لكن، لماذا رحلتِ باكراً؟ وأين كنتِ؟

قالت:

- كنت قربك. وحين ناديتني سمعت النداء، فهرعت إليك.

قُلْتَ:

- أنا ناديتك؟ دعيني أتذكّر... نعم، نعم، في إحدى غفواتي ناديت: «أمي» ...

* * *

ولم تكن تعرفها.

تلك الأم التي عنها انسلخت، وانزلق عن جسمها جسمك، تركتْك تتدحرج في المسالك الوعرة في الحياة.

مرة سألتُك كي تصفها لي، فقلت:

- نسيت معالم وجهها، لون عينيها، شعرها نغم صوتها ...

الآن اسألك:

- هل تذكرتها؟

أسأل، ولا أنتظر جوابا. لا تُجبني ...

قلت لي يوماً: «لو بقيت أمي قربي، لو رعت طفولتي، لو تركت ليديّ الحرية لتغلاّ في خصلات شعرها ... لو أخذتني بين ذراعيها، وهدهدتني بصوتها الحنون، كي أغفو ... لو غنت لي

http://nj180degree.com

نشيد الأمهات لأطفالهن: «نمْ، يا حبيبي، نمْ» ... لو ... ربما كنت تذكرتها، ووصفتها لك» ...

* * *

يومها، دمعت عيناي وهربت منك، سرتُ الى ظلال شجرة الكينا، وجلست فوق القشور اليابسة والورق الأصفر وبكيت ... بكى قلبي يومها عليك ... كنت أنا طفلة، وأنت كنت أبي اليتيم منذ الطفولة ...

* * *

أعدتَني اليك من رحلة الذكريات تلك... صوتك أعادني اليك:

- السيدة تجلس هنا، منذ زمن، لم تقدمي لها فنجان قهوة.

- صحيح السيدة المتشحة بالسواد ضيفتك. كيف نسيت؟

وقمت كي أُعد لها فنجان قهوة ...

* * *

لست أدري ما الذي جرى في أثناء غيابي وحين عدتُ، لم تكن المرأة هنا.

ولا كنت أنت.

رحلتِ العينان، والصوت، وحرارة الأنفاس ...

رحلتْ، وبقي فوق السرير شكل غريب لرجل عرفته ذات يوم...

ناديتك، لم تسمع.

ناديتُ بصوت اعلى، ثم سمعتك تهمس في أذني، من فوق هامات الجمهور:

- اخفضي الصوت، ولا تزعجيني، أريد أن أنام.

* * *

قلتُ لهم:

- يريد أن ينام فلا تزعجوه.

قالت امرأة يقظة:

- نرندح له ترانيم النوم، ترانيم خاصة حفظناها لمثل هذا اليوم.

قلت للمرأة:

- أخشى أن ...

ولم تدعني أكملُ. أومأت اليّ برأسها علامة الفهم وقالت لي عيناها: «ان ترانيمها لا تزعج النائم» ...

http://nj180degree.com

اغمضتُ عينيّ، ورحت أرشف الأنغام، ترانيمها الآتية من مسافة أجيال، من اعماق القلوب الواجفة، من جذور الغابات البرية... ترانيمها الهابطة من ذريرات الأثير تقفز فوق شفاه النساء، وتتلقفها أسماع الأطفال فيرنمون للنائم الصامت.

* * *

لبثتُ جامدة.

لم اشأ أن أوقف التيار، وذلك الجرف الهائل من الأنغام ...

قالت لي امرأة أفعى:

- لماذا لا تبكي عيناك؟ لماذا لا يرتفع صوتُك بالنواح الملتاع؟ لماذا لا تشدّين الشعر وتقرعين الصدر أسى ولوعة؟ لماذا؟...

لم ارد. انحنيت فوق وجهك الساكن، ورجوت منه أن يرد عني.

كانت تلك المرة الأولى التي ترد لي طلبا!

ومن قبل كانت مطالبي عندك غالية. واليوم كانت المرة الأولى، التي فيها لا تنظر اليّ عيناك بخفر اعرفه، لتقولا أن المحبة بيننا لا تترجم بكلام ...

انحنيت، ومرة أخرى رجوت منك:

- قل شيئاً ... برئك رد عليّ...

* * *

كان الناس من حولي يقولون عنك... جمعوا الكلام عقود زمرد وياقوت، وراحوا ينثرونه فوق هامتك، فوق جسم صار ملك أيديهم.

في بعض تلك اللحظات كنت أحسُّك غريبا، غريبا، وبعيدا، وباردا وحياديا ...

وصُعقت ...

* * *

مددت يدي لكي أُقنع نفسي، مددتها أجس بها الجبين؛ وضعت أصابعي حيث نسيت شمس الغروب خصلة من شعرها، سقطت يدي فوق بلاط مثلج، المكان الذي كان مرتع الدفء والحنان. كم ارتفعت اليه شفتاي، جبينك العالي! كم مرّة قبّلته بخشوع! والآن، لم يعد يخصني، صار ملكاً لجبال الثلج النائية...

* * *

عادت عيناي تسرحان على مدى انتشار جسمك. كيانك هذا

http://nj180degree.com

اللطيف المرهف، جسمك الناحل مثل طيف ملاك، وجهك العائد من رحلة السبعين، عاد يغلّ في اعباب الطفولة، ولم أكن أدري أن اللص، الذي فاجأك عند انتصاف الليل، يملك طاقة سحرية يمكنها أن تحوّل وجوه الكهول الى طلعات بهية، لأطفال مرحين ...

* * *

كانوا كلهم يبكون عليك، ينوحون،

وحدك أنت، كنت تبتسم وتلهو.

أبصرتُك تحلّق بوجهك الطفولي الجديد، تعبر تموّج الترانيم، وصفوف الوجوه الباكية، وذرى الرؤوس المترنحة، تحلق، ومن عُلاك، تتأمل وتفتر شفتاك عن بسمة فرح ...

تفرح لأني معك،

من بدء الألم حتى نهاية الصلب،

وتحزن لرؤية الناس، يبكون الميت، وحالهم بالبكاء اجدر ...

لكني لمحت، وكأنما في حلم، قطرة من دموع طفل، تسقط على «البرقع» الشفاف، مغلف كيان الجماعة.

* * *

وكان عليهم ان يتابعوا المسير:

حملوك.

حملوا جسمك الناحل والوجه الطفل، والوردة الحمراء المزدانة بها ياقتك. حملوا ذلك كله، وأخفوه في صندوق من خشب السنديان، وعينا الطفل تراقبان حركة الأيدي وخطى الأقدام ...

فيما بعد، أبصرتُ الطفل عينه، فوق جناح الهيكل، يتابع تسجيل ملاحظاته: ينصت للصلاة، يستمع الى عظة، يحفظ الكلام كله، قبل أن تلتقطه آذان الجمهور.

وحين انتهى الوعظ والصلاة، أبصرت جناحين يرفّان، يحيطان بوجه طفل ملاك، يصفقان قليلا، وعلى ايقاع التصفيق، يرتفع غطاء الصندوق ثم يهبط ليلتحم بجزئه السفلي...

* * *

هم حملوا النعش، وانا حملت قلبي، ثم دعوتك لنرجع سويا، قلتُ لك: «احب الأطفال وأنت صرت، منذ اليوم، طفلي وتعيش في شغاف القلب، في مآقي العينين».

قلت لك:

- أُعيضك من طفولة اليتم البائسة، زمن التشرد والضياع أضمك الى صدري، وأحميك ...

http://nj180degree.com

ومن جديد، سمعت تصفيق جناحين، حملا الوجه البريء، ورحلا.

رجوت منك، قبل أن تغيب، أن ترجع ولو لزيارة، زيارة خاطفة.

قلتُ ...

ولم أسمع منك الجواب.

* * *

الآن أعلم أنك سمعت دعوتي، ولم ترد لأنك اخترت حرية المجنحين.

الآن أعلم كم أن حريتك عزيزة لديك. لن تبادلها، بكل المحبة، بكل المغريات... الآن، بت أدرك أن كلماتي مسجلة في دفترك. وقد عدتَ، ليلة أمس، مثلما كنت أتوقع...

عدتَ، مثلك أيام زمان، أيام الماضي الهادئ وصفاء العيش... وأيام كانت «الكاپا» عباءتك الرحبة، تنفرد كجناحي نسر، وتحتوينا:

حين كنا ستة «زغاليل» نغل في حماك.

١٩٧٩

رهان الفراشات

(الى الهام ع ... البطلة الحقيقية لهذه القصة)

يأتيني وجهكِ مثل تموجات اثيرية، وأحاول التكمش به وتحديد معالمه، لكنه لا يلبث أن يتلاشى.

أحياناً، أبصركِ في شكل فراشة، وقد حدث ذلك اكثر من مرة، وحتى في فصل المطر والبرد، حين يندر ظهور الفراشات.

كنتِ تأتين ... ترفين على زجاج النافذة، حتى اذا شعرت بذبذبة حضورك، ورفعت نظري لأبحث عنك، تواريت...

أحياناً، كان وجهك يطلع من بين السطور، فيما أنا مكبة على كتابة قصة أو مقالة، وأراه متشحاً بثوب غمامة يبين من خلاله

http://nj180degree.com

رفيف الأهداب وإشراقة البسمة المضيئة، فأعرف للتو أنك تخترقين أسطري في وشاح من ضباب ولكني لا أعلم ماذا تريدين...

وكان حضورك، في بعض الحالات، يتكشف ويتجسد حتى يكاد أن يكون حقيقياً، فأراك جالسة فوق مقعد الزاوية، وكنتِ تختارينه كلما جئتني في زيارة، ثم ابدأ بسماع نغمات صوتك يصدح صداحا، وكأنما الكلمات أوتار تعزفين عليها أناشيدك، حتى اذا ركزت نظري على تلك المنطقة لأحدد وجودك وأحصره، وبالتالي أتحقق من صحة حضورك، طفتْ ابتسامتك الشقراء، المستلة من شعاع شمس ربيعية، وراحت تتثنى وتتكسر ثم تنتشر وتحجبك خلفها، فأقع أسيرة البسمة من جديد، ولا أعود أصدق أنها قد تلاشت من الوجود.

* * *

يا باسمة؟

تأخرتْ برسالتي هذه اليك، وكنت أنوي كتابتها، في أثر الزيارة الأخيرة لدارك، حين كنت أنت غائبة، وكان هناك نبيل، زوجك، وجميع أفراد العائلة، وكان الجو مثقلاً بالحزن، وصامتا،

فجأة زغردت في أذني ضحكتك وراحت حلقاتها تتوسع وترسو كل حلقة منها على رأس واحد من أفراد عائلتك، وكأنها تريد أن تفتح معه حواراً خاصاً ... وانما، ويا للأسف، كنا جميعاً غير قادرين على فهم رنين ضحكتك، وحسبناه بكاء، لذا، واجهناك بتلك الموجة الهائلة من الدموع ... وشعرت بك تقتفين خطواتي، وأنا أغادر القاعة، ثم تمسكين بيدي وتهزينها عدة مرات. وفهمت أنك تطلبين مني التوقف معك لحظات، بعيداً عن الجماعة. ثم لم تعد يدك وحدها الحاضرة في الوعي، بل وجهك، وقامتك المشيقة الناعمة، ولا أنكر أني حاولت اجتنابك ومتابعة السير، غير انك اعترضت سبيلي بقوة وركزت نظراتك على وجهي وعيني:

– ماذا؟...

سألتك بصوت مكتوم وكررت:

– ماذا تريدين؟...

فتحوّلتْ نظراتك من جديد الى المرح والدعابة، ورحتِ تقهقهين، ثم تواريتِ خلف ذلك الصداح الذي رافقني، ولم يعد يفارق.

هل هذا ما كنت تودين ابلاغه؟... انك سعيدة، وفي حالة دائمة من الفرح؟ وهل الضحك هو رمز لتلك الحالة التي تعيشين؟

http://nj180degree.com

سأظل أخمن وأفسر الأمور مثلما يحلو لي أن أتخيل، وكما يطيب لي أن أحلل وأعلل، الى أن تأتي رسالة منك، وتشرح لي كل ما عصي علي فهمه وادراكه...

أما الآن، فدعيني أوجه اليك بضعة أسئلة، كي اهون عليك الرد، اذا شئت أن تردي. وان لم يرق لك الدخول معي في حوار جديد، فذاك شأنك، ولن أعتب، اذ صرت خارج مدى فهمي وحدود ادراكي. وسؤالي الأول هو:

– لماذا اخترتني من بين سائر الكتاب لتجري دراستك وأبحاثك لنيل «ماجستير»، في الأدب المعاصر؟

هكذا قلتِ، حين جلست أمامي، ورحت تشرحين غاية اتصالك بي، ثم قيامك بزيارتي: «أحببتك ...» قلت، «من خلال ما قرأت من قصصك، لذا قررت أن أختار أعمالك موضوع دراستي» ...

ولم يكن لدي أي اعتراض، ولم تكوني أول من قام بمثل تلك الدراسة، وقد قلت لك يومها: «سبقك بعض الباحثين، وقاموا بكتابة رسائلهم، وفي وسعك أن تستفيدي من مطالعة أعمالهم»، فلم تعلقي ...

فيما بعد، فهمت أنك أطلعت على كل ما كتب، الا أنك تسعين الى القيام بعمل مختلف، لا صلة له بتلك الدراسات:

– هذا يعود الى اختيارك وما يريحك.

قلت، وانا واثقة بأنه لا دخل لي في ما تختارين، وان كنتُ قد رحبت بحضورك، واجبتك عن كل ما طرحته من اسئلة تتعلق بأبحاثك.

أما السؤال الثاني فهو:

– لماذا اخترتني لتهمسي سرك الكبير: «انا في سباق مع الزمن». قُلتِ، ثم قطعت كلامك بضحكة مجلجلة.

– لماذا؟

سألتك بغلاظة من يعصاه فهم التلميح، ويطلب الشرح البياني والكلام الصريح:

– لماذا تحسبين أنك، وفي عمرك الفتي، تسابقين زمانك؟...

ثم أضفتُ جانحة الى فلسفة الموضوع:

– على كل حال، كلنا، اذا شئت، في حالة ما من أحوال ذلك السباق ...

فابتسمتِ، وارجأت الشرح الى جلسة تالية. أما الذي جاء في

http://nj180degree.com

أثر تلك العبارة فهو أخباري عن هوايتك المفضلة، مسابقات الألغاز والمعلومات:

- وكنت، قبل الزواج، أفوز دائماً، وأكسب جوائز.

قلتِ بلا مبالاة، وابتسمت أنا بدوري وسألتك:

- أَلاَ يزال الحظ حليفك بعد الزواج؟

- لم يعد لدي الشغف الأول. ربما، لو عدت الى ممارسة تلك الهواية من جديد، لتضاعفت فرص نجاحي. ألا تظنين؟...

سألتني لأشهد على ما أجهله من شخصيتك، لكن الذي كان أمامي وأعرفه بكل تأكيد، هو أنك شابة شجاعة، لا تهاب. ويكفيها ذلك زاداً كي تواجه التحديات.

- ليس للتحدي كنت أخوض تلك السباقات.

قلتِ، ثم تابعت:

- فقط للتسلية.

- لكنها تسلية مفيدة، ويمكنني القول أنها تسلية جدية.

يومها، ختمت حوارنا ببشاشتك المعهودة، ونهضت تودعينني مع وعد بالعودة الى لقاء قريب:

- لن أكون وحدي، في المرة المقبلة سأصطحب ابنتي وأعرفك عليها، وسوف تحبين «نوّارة» كثيراً.

- لا أشك في ذلك، خصوصاً اذا كانت شبيهة أمها.

* * *

ورحتِ تهبطين السلم قفزاً، ونظراتي تشيّعك، وظلت التساؤلات تقفز في بالي:

- لماذا سباقها مع الزمن؟ وهي صبية، في مطلع حياتها؟... لماذا؟

* * *

حين سألتك عن عمرك، حاولت التهرب من الاجابة، ثم قلت:

- وماذا يهم العمر؟... وهل نقاس بعدد سنوات عمرنا، أم بما نفعله في هذه السنوات؟

- لكنه فضول، يدفعني لأعرف.

- أنا في السابعة والعشرين، وقد تزوجت قبل خمس سنوات، وبسبب الزواج قطعت دراستي الجامعية، أما الآن، وبعدما

http://nj180degree.com

اطمأننت الى قدرتي على الانجاب، وصار لي ابنة، فقد عاد الشوق يحثني على العودة الى الدراسة من جديد.

- و«نوّارة»، كم عمرها؟

- ثلاث سنوات.

بعدما غادرتني، ظل سؤال يجول في رأسي، حول تعبيرك الغامض: «اطمأننت الى قدرتي على الانجاب». وكان علي أن أنتظر جلسة تالية معك، حتى أعرف ماذا يكمن وراء تلك العبارة.

* * *

وقذفتها في وجهي، نعم، هكذا جاءت وأنت تنشرين حولك مناخات الصحو، وزهو الربيع:

- بالأمس شعرت بألم في ظهري، وحين راجعت الطبيب، طلب مني صورة أشعة.

لم يكن في قولك هذا ما يثير الاستغراب، فوجع الظهر حالة تكاد تكون عامة، وتأتي من طول التصاق الانسان بمقعده، أو من سوء الجلوس في بعض الحالات. والانسان العصري ابتعد عن الطبيعة، ولم يعد يمارس الرياضة البدنية كما يجب. هذا ما حاولت قوله، بعفوية، لكي اطمئنك. فابتسمت وشعرت، هذه

المرة، بأن ابتسامتك تجنح صوب مناطق السخرية، وربما فعلت ذلك كي تخففي من وقع تصريحك التالي:

- أخشى أن تكون لهذا الألم علاقة بالعملية التي أجريت لي قبل سنة، لاستئصال ورم خبيث.

- ماذا؟...

صرخت، وقد صعقني تصريحك، ثم رحت أخفض صوتي وألجم عواطفي، كي أتابع حديثي معك ببساطة. لكن العجيب هو أنت ... صمودك أمامي من دون أن تفارق البسمة شفتيك، أو حتى عينيك. وكنتِ كمن يروي بحياد تام، حكاية شخص غريب، وبعيد عن العين والقلب.

وكانت ردود فعلي التالية الصمت. لكنك لم تتركيني لصمتي، اذ مضيت في سرد الحكاية، وكأنك اعتدْتِها واعتبرْتِها أحد الرهانات التي تتحداك، وأنت مصممة، مثلك في السابق، على كسب جولة السبق.

وبعدما غادرتني، شعرت برغم كل ما أبديت من مرح وعدم اكتراث، وتعال على العلة ... وبرغم موقفك الصلب ذاك، شعرت بأنك فتحت في كياني جرحاً بليغاً ...

http://nj180degree.com

وتعودني تموجات صوتك الآن فيما أسجل هذه الوقائع، وأسمعك تتابعين الحكاية بهدوء:

– لقد أكد لي الطبيب أنه لا علاقة للعملية، بألم الظهر. قال: «ربما تحملين أثقالاً فوق طاقة جسمك ... ابنتك، مثلاً» ... قال.

وأتبعتِ قولك ذاك بضحكة شاركت فيها زرقة عينيك وتثنيات وجنتيك، وشعرك، وانتفاض جسدك الوديع وأنت تغمرين «نوّارة» وتقربينها منك، حتى تلتصق بصدرك وتكاد تتآوى في جلدك:

– حبيبة أمها ... هل يقوى أي طبيب أن يمنعني عن حملها؟ وليس كما تعودت الأمهات حمل أولادهن. أريدها أن تعود الي، وتتغلغل في مسام كياني.

واكتفيتُ بالصمت جوابا، وأنا اتأملكما مغمورتين بهناء الحب، ودفق الحنان. وكانت الطفلة تنعم بدفء حضنك، ثم تنحني بوجهها الملائكي على وجهك، تغرس فوقه سيلاً من القبل...

لم أَرَ في ذلك أمراً غير عادي. أحياناً نتداخل، نحن الأمهات، مع أطفالنا وفي بعض حالات اللاوعي نحاول استرجاعهم الى الرحم.

قلت ذلك لنفسي، متذكرة طفولة اولادي، متسائلة: «هل حقاً كانت علاقتي بهم قريبة الى تلك الدرجة؟»، ثم رحت ألوم الذاكرة المتراجعة:

– سرعان ما ننسى ... حين يكبرون، ويبتعدون عنا، ياه! ... كم يغلبنا النسيان! ...

لكنني لن أنسى، ما حييت زيارتك الأخيرة بصحبة «نوّارة»:

– لقد تحوّلت ابنتي الى فراشة.

قلتِ، وأنت تقودين خطاك المتمهلة داخل البيت، وكانت الطفلة ترف حولك مثل فراشة حقيقية، وقد رسمت فوق وجهها زهوراً وفراشات، وزينت ساعديها بالأساور الملونة ونثرت الألوان فوق كل ما بان من جسدها اللطيف:

– انها، حقاً، فراشة. قلتُ، وأنا أدعوك الى ركن هادئ في قاعة الاستقبال.

– هكذا شاءت أن تستقبل الربيع.

قلتِ، فخورة بها، وعيناك تقطران عاطفة، ثم أضفت:

أحياناً، أحسبها طيفاً، لا طفلة من لحم ودم. وفي بعض الحالات، أبصرها ترفرف، وتهم بالطيران بعيداً عن كياني.

http://nj180degree.com

- تلك أحوال الأمهات، في أوج توقد العاطفة.

قلت لك، في محاولة لدفع الحديث الى مسار عادي.

لكنك لم تكوني مستعدة لقبول «المألوف» و «العادي» من الأحوال. فقد كنت تعيشين معها حالة خاصة من الصعب وصفها. وفي تلك الجلسة سمعتك تفاخرين بذكائها:

- تصوري، ابنة ثلاث سنوات، وتحفظ عناوين كتبك وقصصك. حين انصرف الى القراءة تجلس بجانبي، وتروح تمطرني بأسئلتها، وذاكرتها تسجل الحوار. لها ذاكرة «كومبيوتر».

في تلك الجلسة، وفيما أنت تتحدثين عن الطفلة، وعن دراستك، سمعتك تنتقلين فجأة الى مدار آخر من الكلام:

- غداً يدخلني الطبيب المستشفى لأجري بعض الفحوصات ...

- ولكنك تبدين بصحة جيدة ...

قاطعتك، فابتسمتِ:

- لا يغرك المظهر الخارجي. باتت الآلام لا تفارقني، ليلاً ونهاراً ...

- بالسلامة ان شاء الله!.. قلتها، وأنا أفكر في أن المرض لا

يتناسب مع اشراقة حضورك، ومع تلك الحالة من التناغم بين الأمومة والطفولة.

* * *

ويبدو أن دخولك المستشفى كان واقعاً لا مفر منه. ثم بات المرض مقر اقامتك الدائمة.

اعترف بأني ترددت كثيراً قبل أن أزورك في المستشفى وتضاعف ترددي، حين وجدتني أمام باب غرفتك، ولا اجرؤ على الدخول. فقد اعترضتني تلك العبارة الحاسمة، «الزيارات ممنوعة».

وحسبتني، في البدء، اخطأت الغرفة، وكنت أهم بالتراجع والهرب، حين فتح الباب فجأة، وخرج نبيل، وقد فوجئ بوجودي، بالأخص وأني قبضت عليه مرتدياً ذلك القناع المنذر فوق وجهه، ولم تجده محاولة تبديل ملامحه، فقد قرأت المكتوب فوق القناع، ثم تابعت قراءة الوضع وهو يقودني اليك، مصطنعاً المرح في مخاطبتك:

- أنظري من جاء يزورك...

و رأيتك، لأول مرة، غارقة في الوهن. ثم رحتِ تنهضين

http://nj180degree.com

بشجاعة، مستعينة بالوسائد، لتسندي آلام ظهرك وكل مغرز ابرة في جسدك، وتهللتْ زرقة عينيك، وكدت أصدق أنك هنا، خطأ:

- كم تسعدني زيارتك!

قلتِ، وأنت تصلينني بما انقطع بيننا من حوار:

- اخبرتك بأني سأدخل المستشفى لاجراء بعض الفحوص المخبرية، وحسبتني سأخرج في اليوم التالي، لكن الطبيب لم يسمح، وقد أخضعني لعلاج «كيمو» قال أنه ضروري لشفائي.

كانت كلمة «كيمو» المفتاح الذي رشقتني به، لكي أفهم حقيقة الوضع، ولولاها لما أدركت أن الوجه الغارق تحت تلك الابتسامة الغامرة هو وجه مريضة بداء عضال.

ثم راحت شجاعتك تتكشف لي، وتوسّع مناطق دهشتي، وأنت تروين لي كيف تقبلت الحقيقة ببساطة، وهمك الآن أن تتقبلها عائلتك، من الزوج الى الأب والأم والأخوة والأخوات:

- أما نوّارة فلا تزال طفلة، وما دمت قادرة على حضنها، سوف يبقى الوضع طبيعياً ... يزعجني وجودي في المستشفى لبعدها عني.

- أيام قليلة وتخرجين ...

قال نبيل، فهتفت بصوت مفعم بالأمل:

- طبعاً سأخرج قريباً، والا لما خضعت للعلاج.

* * *

وأعترف لك الآن، يا باسمة، وابتسامتك العذبة تتململ بين كلماتي بينما أنت غائبة عن العين، وإن بقي حضورك في تجاويف القلب وثنايا الذاكرة ... أعترف لك بأن غيابي عنك في الأيام التالية لتلك الزيارة، لم يكن بسبب العمل أو السفر أو أي من تلك الأسباب التي نتعلل بها كي نبرر هروبنا وجبننا وخوفنا من مواجهة الحقائق ...

وأنت، لم تتبدلي. بقيت لك بسمتك العذبة، ترفعينها علم خلاص حتى وأنت تتحوّلين من رشاقتك المعهودة لتعيشي التشوّهات التي يخلفها علاج «الكيمو» مهما كان رحيماً ومتطوراً.

وكنتُ، وأنا جالسة أمامك في تلك الزيارة الأخيرة لا أصدق ما أرى: فقد أبصرتك تنفصلين عن كيانك الحاضر، المريض، وتدخلين جسدك الأول الرشيق، وكأنك بذلك تؤلفين فريق تحد،

http://nj180degree.com

بينهما، وتجعلينهما يتقابلان في مسابقة تتجاوز كل ما عرفتِ وفزت به من مسابقات.

ولن أسألك الآن، عن الفائز في تلك الجولة الأخيرة، لأني أعلم جيداً، كيف حصدتْ طبيعتك الرضية وبسمتك الشقراء، كل الجوائز وربحت الرهان الأخير، متحدية جسد المرض، متعالية على ضعفه، ومتجاوزة حدودنا الضيقة الى رحابة النور الأبدي وبهائه ...

خط الرجاء

وعَدتُ **دينا**، بالكلمة الشفوية والمكتوبة، بأن أزور والدتها، حال وصولي الى بيروت؛ لكن تراكم الواجبات والأعمال أخّرني بضعة أيام عن تحقيق الوعد ... أو أن التأخير كان حالة من حالات اللاوعي خوفاً من لقاء انسانة مجهولة، وصفتها **دينا** لي كتابة، اذ لم يوفر لنا الوقت فرصة للحديث الشفوي ... لذا كتبت تخبرني عن أمها، وهي تعيش، كما قالت، حالة يائسة بسبب المرض، وأحوالها النفسية البائسة.

وتابعت **دينا** وصف أمها محدّدة عمرها، وثقافتها، وعملها، مضيفة أنها: سيدة جميلة، وذكية. حظّها العاثر قادها الى زواج بائس برجل امّي، لكنه تاجر شاطر، كلّ همّه من الوجود، جمع المال وادّخاره.

وقد ساعدته الحرب على تحقيق طموحه، فتوسّعت تجارته حتى

http://nj180degree.com

باتت تشمل كل السلع التي تُفتَقَد في أزمنة الحرب، ولأنها ضرورية، فلا غنى للناس عنها، وهم لذلك مضطّرون الى دفع أضعاف الثمن الأصلي لكي يحصلوا عليها. و ... سنة بعد سنة، كانت لائحة تلك الحاجات تتضخّم، فلم تعد محصورة بالسكر والدقيق، والرز والفول، بل أصبحت تشمل شتى السلع الاستهلاكية، بما في ذلك وسائل الانارة والتدفئة والماء... وحتى الهواء كاد يصبح سلعة ذات ثمن باهظ.

وحين كبرت تجارة الرجل وتمدّدت، لم تعد تسعه داره القديمة، ولا عادت الزوجة ترضي مزاجه الجديد، فطلّقها وتزوّج من جديد، والزوجة صبية تكاد تكون بعمر ابنته ...

* * *

هكذا كتبت **دينا**.

وحين وقفت امامي، مستندة على عكازها وناولتني رزمة الأوراق، بدت شامخة، متحدّية، بل ومتعالية على تلك العاهة الجسدية التي لازمتها منذ أصيبت بشلل أطفال عطّل ساقها.

كانت الأوراق مكتوبة بالفرنسية. هذه الفتاة اللبنانية تكتب لي بالفرنسية ... لماذا يا **دينا**؟

وهل ان التعبير باللغة الأجنبية يسهّل الخطاب، ويجعل البوح ممكناً؟ أم أنها غربتك، وقد أفقدتك التعبير بلسان والديك؟

* * *

اعترفتِ الباحثة العربية، المشاركة في ندوة اللقاء الفكري، بأنها ستُضطر الى حذف عدة فصول من كتاب مذكّراتها. الموضوع أصلاً باللغة الألمانية، فيما لو نقلته الى اللغة العربية. هكذا قالت بصراحة.

فهل ما كتبته **دينا** كان من نوع تلك الذكريات؟

كان هذا التساؤل معلقاً في نظراتي، حين ودّعتها، بعد لحظات قليلة من تعارفنا ولقائنا عند مدخل قاعة المؤتمر.

* * *

كنت برفقة احدى المشاركات في المؤتمر، وقد تطوّعت لتوصلني بسيارتها، فقبلت عرضها شاكرة. وفيما كنت أهمّ بالترجّل سمعت نداء من قرب، وكان آتياً من داخل سيارة متوقّفة في الجهة المقابلة، وفيها صبية جالسة في مقعد القيادة. كان النداء والشرح بالألمانية، اللغة التي فهمتها رفيقتي ولم أفهمها، ولم أفقه معنى النداء إلا عندما أبصرت الرفيقة تترجّل من سيارتها، وتهرع

http://nj180degree.com

الى الفتاة، فتمدّ لها يدها، لتتوكأ عليها، ثم تتوجّه معها الى المدخل، قبل أن تعود اليّ، وتدعوني لندخل.

وكانت **دينا** هي تلك الفتاة، تستخدم في تنقلها عربة مخصصة لأمثالها من المعوقين. وقالت لي أمها حين التقينا، فيما بعد إن **دينا** تسافر في سيارتها تلك عبر الدول الأوروبية، ومن دون رفاق.

حين بلغت **دينا** أسفل السلم، طلبت من مرافقتها أن تتركها، فهي معتادة تسلق تلك السلالم الخاصة بالمعوقين والمزروعة عند مداخل المؤسسات العامة، ولم اقوَ على حجب نظري كلياً عن مشاهدتها، وهي تستند بيديها الصحيحتين، الى خشبة متدلية من الجدار عُلّقت لتلك الغاية، ثم تسحب ساقيها، بجهد وتركيز، درجة تلو درجة، الى أن بلغنا القاعة. عند قمّة السلّم توقّفت لحظة، ثم مدّت يدها تسلّمني رزمة أوراق وهي تتمتم:

– اقرأيها حين يسمح وقتك بذلك ...

ضممت الأوراق الى ملقّي، ثم نسيتها تحت ضغط المشاغل الآنية خلال المؤتمر.

وحين عدت الى بيروت، حملتها معي كي اقرأها بهدوء.

كتبت **دينا** رسالتها بتأن، وبواسطة «الكومبيوتر» الذي تتقن استخدامه. وتركت لي العنوان في ذيل الصفحة الأخيرة. وكان جوابي أول رسالة حرّرتها بعد رجوعي، وقد وعدتها بأن أنفّذ وصيتها، فأزور والدتها، بالتأكيد، وفي أقرب فرصة ممكنة.

* * *

العنوان في يدي. وأنا أقود سيارتي باتجاه حيّها. ومع أن مقرّ سكني ليس بعيداً عن ذلك الحيّ، الاّ أني شعرت، وأنا أترجّل من السيارة، بأني انتقلت الى عالم آخر، والى مدينة بعيدة عن العاصمة؛ فالحيّ مكتظّ بالسكان، يعجّ بالحركة والحياة. الفتيان في عرض الشارع، يمارسون لعبهم، ويحاورون السيارات وزماميرها الفاجرة. والنساء يحملن الأطفال، أو الجرار، لنقل الماء من السبيل العام. وأنا أتكمّش بالورقة في يدي، وفوقها العنوان: «مخزن أمين للأدوات الصحية». هنا، لا رقم للشارع والأسماء ملتبسة، وعليّ أن أقرأ اليافطات المرفوعة فوق أبواب المخازن ... وأعتمد على سؤال المارّة.

– نعم ...

قال لي أحدهم، وكان منهمكاً برفع أكياس ثقيلة الى سطح الشاحنة المتوقفة في عرض الشارع:

http://nj180degree.com

– نعم. كمّلي حتى آخر الشارع شايفه البرداية الحمرا؟ ... هناك.

سرتُ في الخطّ المستقيم الذي وصفه، فوجدتني أمام واجهة مكسوّة بطبقة كثيفة من الغبار والطين. ومن فتحة الباب لمحت رجلاً مُسنّاً جالساً خلف مكتب معدني، يرنو الى الخارج بعينين فارغتين، ووجه شاحب، القيت عليه التحية، فردّ برؤوس الشفتين، سألته عن عنوان نجلا والدة **دينا**، فتيقّظت عيناه. ولكي أطمئنه، أخبرته بأني أحمل اليها رسالة من ابنتها في **سويسرا**. فهتف بحماسة:

– هاتيها ... انا أوصلها اليها.

اعتذرت مع ابتسامة:

– عفواً ... اني أسعى الى مقابلتها شخصياً.

– اذاً، أمضي على الخط الموازي لنا، حتى تبلغي حدود المدرسة، وهناك اسألي عنها أي صاحب دُكان.

كانت البنايات عديدة، ومتلاصقة، ومثلها الدكاكين، وخطر لي أن أتوقف عند موزع لقوارير الغاز. هذا الرجل لا بد من أن يعرف، وصدق ظني:

– طبعاً أعرف بيت الست نجلا. تقيم في الطابق الثاني عشر، وهي تقصف عمري وظهري كلما طلبت قارورة غاز، اذ عليَّ أن أتسلق السلالم بحملي الثقيل. مصعدهم معطل منذ بدأت الحرب...

وأنا لست مولعة بتسلق السلالم، خصوصاً الى الأدوار العليا، وفي البنايات المتخاصرة بهذا الشكل. لكنني بلغت نقطة اللارجوع، وعليّ أن أحاول.

* * *

لم يكن ضيق السلم، والروائح الكريهة المنبعثة من زواياه وحدها مصدر الازعاج بل والظلام أيضاً.

فارقني النور الضئيل المتسرب من ثقوب في الجدران، خلفتها الشظايا، عند الطابق الثالث. وبالطبع، لم تكن الانارة الكهربائية متوفرة، وقد نسيت التزود بشمعة مثلما كان دأبي في زمن الحرب. واذا كانت هناك مولدات كهربائية يعتمدها سكان هذه البناية، فقد كانت، في تلك الساعة من النهار، ساكنة. لكن عليّ أن أتابع التسلق حتى الطابق الثاني عشر، لا تراجع أو تردد، بل أحتاج الى اليقظة التامة، حتى لا تتعثر قدماي، أو أصطدم بأحدهم، صاعداً أو هابطاً ...

http://nj180degree.com

رحت أعد الطوابق حتى لا أخطئ، وأخيراً، وصلت. ووجدتني أمام الطابق الثاني عشر، ويدي على الجرس. لكني لم أسمع أي ردّ فعل من الداخل. ثم تذكرت أن الجرس معطل في غياب التيار. فرحت أخبط على الباب، وأصغي. وبعد لحظات، سمعت حركة خفيفة تبعها وقع خطوات تتجه صوب الباب، من دون أن يتوقف حديث متواصل بين شخصين، أو ربما أكثر.

حين فتحت السيدة الباب، كان وجهها فارغاً وخالياً من أي تعبير. ربما حسبتني اخطأت الرقم، وأنا بصدد البحث عن غيرها من سكان العمارة. فسارعت الى طمأنتها بسؤالي:

- الست **نجلا**؟... حضرتك الست **نجلا**؟...

ردت من دون أن تبدي حماسة ملحوظة:

- نعم، وأنت؟...

ثم وكأنها فطنت الى وقوفي خارج العتبة، فتراجعت خطوتين وهي تدعوني الى الدخول:

- تفضلي ...

- احمل اليك السلامات، ورسالة من **دينا**.

- **دينا**؟... أين، وكيف؟ ومتى شاهدت **دينا**؟...

- أنا عائدة للتوّ من مؤتمر أدبي عقد في **زوريخ**. وكانت دينا بين الحضور هكذا تم التعارف بيننا.

- مؤتمر أدبي؟ يعني أنت كاتبة؟

قالت ذلك، وأمسكت بيدي تدعوني الى الدخول:

- تفضلي، هنا، فوق الشرفة، الطقس مقبول، والفوضى أقل.

قادتني الى أفضل المقاعد هناك، ثم استدارت صوبي لتواجهني بالسؤال:

- لم أتشرف بمعرفة الإسم الكريم ...

- ...

وما كدت أتلفّظ باسمي، حتى هجمت المرأة عليّ، توسعني تقبيلاً وضمّاً وترحيباً و:

- شرّفت، وأهلاً وسهلاً ...

ثم إستأذنت، وتركتني في ذهولي وهرعت الى الداخل وهي تنادي:

- **رجاء** ... أسرع تعال شوف مين عنّا.

لم أسمع جواباً من صاحب الإسم. وطال غيابها أكثر مما كنت أقدر؛ فاغتنمت الفرصة لأتأمل ما حولي. كانت الشرفة

http://nj180degree.com

مكتظة بالرفوف الخشبية الرخيصة، وقد رصَّت فوقها علب تنك، لا تزال تحمل شارات السلع التي حوتها في الأصل، من حليب، وسمن وزيت ومنظفات. وكانت هناك مراطبين زجاجية فارغة. وقرأت الحرب فوق الجدار، ثقوباً، وتفسخاً وآثار حريق، وقد بدت مثل أفواه لجماجم مخبئة، متربصة، ومستعدة للظهور في أية لحظة ...

كانت الحرب قد انتهت منذ حين، لكن آثارها لم تُمْحَ من بيت **نجلا** وبقيت شاهداً يذكر العين، في كل لحظة، بما مرّ من أهوال ...

* * *

حين عادت المرأة جلست بقربي تصغي الى حكاية لقائي بابنتها، والمناسبة التي جمعتنا. وكانت تقطع الحديث، بين الحين والآخر، بتعليقها: «**تقبرني** دينا. أنا بغاية الشوق اليها». ثم نهضت، تدعو أحدهم، من الداخل. وامتثل المدعو، فأطل من الباب، ووقف يتأملني، ويبتسم.

– قرب، وسلم على الست. تقدم **يا رجاء**. ضيفتنا كاتبة، تعال تعرّف عليها.

بقي رجاء مسمَّراً في مكانه ويبتسم. ويتأملني بنظرات لا تحمل أي معنى. ثم لم يلبث أن استدار، وعاد من حيث أتى.

– لا تؤاخذيه ... هذا ابني الكبير، وهو أكبر من **دينا**، لكنه متخلف عقلياً. توقّف نمو ذكائه في السنة الرابعة من عمره. وهو مختلف عن **دينا** وعن شقيقها **ناجي**.

– **وناجي** يقيم معك؟...

طرحت السؤال كعلامة معترضة في الحوار، ولأني لم أشأ أن أعقّب على وصفها **لرجاء**.

لكنها، مثل كل من يألف مصيبته، تابعت سرد الحكاية، بصورة طبيعية، فأخبرتني بأن **ناجي**، مثل **دينا**، موهوب، بل متفوق في ذكائه، ومعوق في جسده. لكن اعاقته لم تمنعه عن متابعة دراسته والحصول على درجة دكتوراه في علم الحيوانات. وهو، مثل أخته، تابع دراسته العليا بمنحة تقديراً لتفوقه. أما **رجاء**!...

لفظت الاسم مع آهة عميقة، وصمتت لحظات قبل أن تكمل حكايته.

– هذا الولد أتعبني أكثر من الحرب. التحق عدة مرات

http://nj180degree.com

بالمقاتلين في أثناء غيابي عن البيت. والحمد لله أنهم كانوا يكتشفونه، في كل مرة، ويعيدونه اليّ قبل أن يرتكب حماقة، اذ كان حضوره يشكل خطراً عليه وعليهم ... نعم، أتعبني **رجاء**، اضافة الى هموم الحرب، وعشرة رجل شرس الطباع، لا يحترم فكري، ويعمد في كل لحظة، الى تحقيري، لأني متفوقة عليه بعلمي. هو تاجر، ولكنه شبه أمي. ويمضي باذلالي حين يذكرني بعاهات أولادي ... الحقير. أنا صنعته من جهد فكري وعملي في التدريس. وفّرت له ثمن شقة وأول رأسمال لتجارته. وعندما تحسنت أشغاله، انقلب عليّ. تاجر في كل شيء: المسموح والممنوع. وكانت تلك الفتاة بائعة في مخزن مجاور لمخزنه، فعلق بها، وفيما كنت أتابع السعي والجهد، لتدبير مستقبل أولادي، كان هو يرسم الخطة لطلاقي، وزواجه بتلك الفتاة .. وقد غرس، بعمله ذلك، الخنجر الأخير في أحشائي، خصوصاً حين جعل تبريره للطلاق: «زوجتي لا تنجب سوى أولاد مشوهين، وأنا أسعى الى الزواج بامرأة طبيعية، تعطيني أطفالاً أصحاء».

اصحاء ... نعم، أنجبتْ له ولدين، لم أرهما، انما الأصدقاء أخبروني بأنه يقيم معها ومع الولدين، في الجبل، أي في البيت الذي اشتريته من جنى عمري، وسجلته باسمه حين كنت أحبه

أكثر من نفسي. وأخبرني الأصدقاء، أيضاً، بأنه خلال الحرب، سقطت قذيفة على احدى الغرف، وأصابت الولدين بالشظايا: فبترتْ ساق الصغير، وفقد الكبير احدى عينيه. الله، يا سيدتي، لا يرشقنا بالحجارة، لكن الله كبير ...

تركتها تروي أحزانها، وأنا أفكر في وصف **دينا**: «أمي ذكية، وجميلة ... لكن حياتها بائسة ...»

أنهت حكايتها، ثم نهضت وغابت داخل البيت بعض الوقت، قبل أن تعود اليّ مع أكداس من الورق. وضعت حملها على الطاولة أمامي وهي تقول:

– هذه المخطوطات تنتظر النشر. وبينها قصتي، كتبتها بدقة، من دون أن أهمل التفاصيل الصغيرة. وقد شكلت الكتابة **خط الرجاء** في حياتي ...

* * *

بالأمس، تذكرت **دينا** وأمها ومؤتمر **زوريخ** والوصية، فقد كنت أتجول في **شارع الحمرا**، وحين وصلت أمام احدى المكتبات، لفتني كتاب أنيق، يحمل عنوان «**خط الرجاء**». حدقت جيداً، فطالعني اسم المؤلفة: **نجلا عامر** ... **نجلا**...! ...

http://nj180degree.com

لا شك في أنها والدة دينا، وها قد تجرأت أخيراً، فأخرجت حكايتها من ظلام الشك الى نور الحقيقة.

اربع رسائل حنين

جئتِ، مثل هبوب نسمة منعشة أزاحت، عن أعيننا، غبار الزمن وأيقظت الأشواق الى الماضي، الوطن والذكريات. وها أنتِ ترحلين، بعد زيارة قصيرة، ولا يسعنا الا أن نقول لك: «وداعاً على أمل لقاء قريب»، وليس عندنا ما نزودك به، سوى هذه الرسائل المحترقة ... رسائل أشواقنا والحنين ...

* * *

كانوا هناك، يقفون فوق أرض مطار الغربة: كل الأحباء الذين هاجروا، الأخوة والأخوات. أبناء الأعمام والأخوال، والخالات والعمّات، الجيران والأقارب ... «طيور أيلول» جميعهم. حضروا لوداعي، بكل ما اختزنت نفوسهم، طوال سني الاغتراب الصعب، من عواطف وحنين. وكان الشوق يقطر من أيديهم

http://nj180degree.com

وهي تصافح، ويحترق في عيونهم وهي تواري دموعها. فتتجمد الكلمات فوق شفاه راجفة.

وقبل أن أصعد سلم الطائرة، دسَّ أحدهم في جيبي، رزمة أوراق ثم أدار ظهره وتوارى في الزحام ...

وعندما عدت الى نفسي، مددت يدي الى جيبي أتلمس محتواها، فشعرت بأني ألامس مادة محرقة ... هل يمكن للكلمات أن تتحول الى جمر؟...

وبرغم ذلك. تركت يدي تغوص في الأوراق، وراحت عيناي تبحثان بشغف، عن رموز وإشارات تروي ملحمة اغترابهم.

نعم، كلنا، فوق هذه الأرض، غرباء؛ لكن غربة عن غربة تفرق...

وحين اضطر أولئك الأحباء الى هجر قريتي النائية، في الجنوب، كانوا يسجلون شهادة دامغة على تقصير الوطن عن احتواء المواطن، وعلى فشل الأرض في مد الانسان بأبسط مقومات العيش. وكانوا، كذلك، يؤكدون طموحهم وشجاعتهم، وحبهم العظيم للمغامرة، وتحدي القدر.

سنة بعد سنة، تعبر «الطيور» المهاجرة سماء قرانا. ومثلها ظل

حبل الاغتراب موصولاً: سنة بعد سنة ... وتتراكم السنون جبالاً رمادية فوق الرؤوس. وتتراكض الأيام، مثل العصافير المذعورة أمام العاصفة.

وتنزلق الساعات فوق الأرض الغريبة ... تنزلق مثل الحياة، وتبقى الجذور موصولة برحم أرض بعيدة، في مكان ما، يسافرون اليه كل ليلة، على متن الأحلام.

* * *

وأتابع قراءة الأوراق بين يدي ...

ومن الرسالة الأولى اقرأ:

تذكرين تلك الليلة؟... انها لغالية على قلبي. فبعدما انصرف الضيوف، وأوى أفراد أسرتي الى النوم، طلبت منك أن تبقي معي، وننسى عقارب الساعة، وكانت تقترب من الثانية صباحاً.

كنت أعلم أن طائرتك تقلع بعد وقت قصير، وأنت في حاجة الى الراحة، والى القليل من النوم ... لكنني قلت لنفسي: لا بأس، يا رجل، الفرصة الآن سانحة، وقد انتظرتها خمسين عاماً ... لا بأس باختصار فسحة نوم ...

وهكذا جلسنا نتسامر. حكينا، ضحكنا وبكينا، وأخرجت

http://nj180degree.com

كلمات ظلت مدفونة طي جدران الصدر، منذ لحظة الرحيل الأولى.

سألتني: «ماذا عندي لأخبرك، بعد طول اغتراب؟!» ... ومن حقك أن تسألي. ورحت أروي لك عن الماضي، حين لم تكوني قد ولدت ... وعندما هاجرت هرباً من الظلم والعبودية. يوم كانوا يرسلوننا الى الخدمة الإجبارية، في جيش يقاتل شعبنا. وكانوا يقودوننا حفاة، في الطرق الوعرة، وسياط الجلد تلوح فوق رؤوسنا.

وأسمعتك حكاية الفتى الطامح وقد اجتاز المسافة من قريته عند سفح حرمون الى شاطئ بحر صيدا، سيراً على قدمين حافيتين، ثم ارتمى في حضن البحر، مسلماً نفسه لقدر مجهول. وأخبرتك قصة صراعه هنا، فوق أرض غريبة وقاسية، والنوم على الطوى، المجاعة والاهانة ...

بينما بقي الأحبة كلهم، هناك: أمي، أبي، أخوتي وأخواتي الصغيرات. كانت خدودهن مثل زهر بخور مريم، نقية نضرة.

منذ خمسين سنة وأنا أزورهم في الليل، أسرق نفسي من زوجتي وأولادي، وأهرب اليهم، وأسرح بين الكروم، تلال

الصنوبر وبساتين الزيتون. وأسمع صوت أبي يهدر في أذني، وأرتمي في حضن أمي، وأقبّل أخوتي الصغار.

كل ليلة ...

وفي النهار أعود فأتذكر أن أبي مات من زمان، ثم لحقت به أمي، والصغار لم يبقوا صغاراً، فقد كبروا وشابوا ... ولم تعد خدود أخواتي وردية نضرة.

وأذكر من أخبار الصحف المتراكمة فوق مكتبي، أن الكروم اندثرت. وبساتين الزيتون وتلال الصنوبر تحترق كل ساعة بنيران العدو ...

وبرغم ذلك كله، يبقى هؤلاء المحيطون بي عاجزين عن فهم حرقتي ...

لذا لا أفتح لهم أبواب صناديقي السرية ...

صحيح أني توصلت، بفضل الصبر والجهد والعناد، الى أن أبني هذا المصنع الكبير، وعندي عشرات العمال والموظفين؛ وأنا في نظر الجميع، انسان ناجح ومحترم، وبالتالي انسان سعيد:

– نعم ... ما الذي يحول بينك وبين السعادة؟...

يسألون.

http://nj180degree.com

وأجيبهم بصوت خافت:

- لا شيء، سوى نقطة النار الخفية، والملتهبة في عمق أعماقي.

* * *

الرسالة الثانية:

كنت لا تزالين طفلة، يوم غادرت أنا القرية، أيتها القادمة الينا من خلف ضباب الأيام.

ربما كنت بين الصغار الذين تسلقوا سور الحديقة وأشجارها ليشاهدوا الفرح ... أعظم فرحة عرفتها قريتنا في حينه. أو لم تخبرك عنها أمك أو جدتك؟... أو لم تشاهدي صورة الزفاف معلقة في بيوت الأقارب؟... وأنا، الصبية الحلوة في ثوب «الدانتيل» الأبيض، أقف بكثير من الفخر والرضى، الى جانب المغترب الثري، وقد اختارني عروسه وشريكة عمره؟...

انا ... يا للسعادة!...

لم يجبروني. لم يفرض عليّ أهلي زواجاً بالقوة.

جاء هو، في مهرجان ثرائه، وكنت يتيمة وفقيرة. وكنت في حاجة الى حنان الأب، وتائقة الى الهرب من قفص بيئتي الضيقة،

وامتطيت متن الفرصة والحلم ... وهاجرت. وعشت بقربه، زوجة مخلصة، ولأولادي الأم المثالية. وحين كبر الأولاد، توزعوا في أنحاء هذه الدنيا الشاسعة.

في بلادي، يلتقي الناس أحياناً فوق راحة اليد. وهنا، عليَّ اجتياز المسافات لأبصر وجه ابني.

قلت: ابني ...

لست أدري تماماً. يطغى الخيال في بعض الأحيان، فأتصور أني لم أحمل ولم الدْ ... ولدتهم هذه الأرض، واليها ينتمون. لقد عجزت عن ربطهم بجذوري البعيدة، والباقية في مكان ما، من زوايا حديقة دارنا القروية.

وماذا بقي لي؟...

زوج مريض، وبقايا حسرة، وهذه الدموع ... أقسم لك، أيتها الخارجة من خلف جدار أوهامي، على أن دموعي لم تجف منذ وطأت قدماي تربة هذه البلاد الباردة ...

* * *

الرسالة الثالثة:

أُذكِّر نفسي كل يوم بأني لست مغترباً. قصدت هذه البلاد

http://nj180degree.com

كي أتابع تخصصي العلمي. أعيد الأسطوانة كل صباح وكل مساء: «يا صبي، أنت هنا لتتعلم، ثم لتحمل ثمار علمك الى بلدك، وتضعها في خدمة مواطنيك، لا تُصْغِ الى أصوات الإغراء. أقفل عينيك حتى لا تبصر. تذكر أنك تمر بتجربة شيطانية ... واذكر وصية أمك حين قالت: عد الينا مهما جرى» ...

وبرغم ذلك يتابع الشيطان تجربتي وأغرائي: «هنا، بوابة العمل مشرعة في وجهك بلا حدود ... هنا، تنمو وتتقدم وتكسب خبرات جديدة ... هنا، تتابع أبحاثك ودراساتك، وتنشىء مستقبلاً رائعاً لأولادك. وهنا الأرض الواسعة والحرية».

وأجيب قائلاً:

وهنا البرد والغربة والوجوه الجامدة، والعيون التي تشبه النوافذ المغلقة. وأنا فتى عاطفي المزاج، من قرية دافئة، اعتاد الناس فيها تشريع أبوابهم ولا يوصدونها في وجوه الغرباء. واعتادوا قضاء أوقاتهم فوق المصاطب والشرفات. الناس في قريتي يعيشون أسرة واحدة، تجمع بينهم المشاركة في المواسم، الأفراح والأحزان ...

والناس في قريتي يمرون في أقسى ما عرفه تاريخهم العريق من تجارب ويختبرون، مجتمعين، معنى الصمود والتعلق بالأرض.

وبين يدي هذه الرسالة من أمي، تقول فيها وتكرر: «عد الينا، يا ولدي، الأرض تناديك» ...

وتعلم أمي جيداً أني فقدت طعم العيش حين لم تعد يداها تعدّان قهوتي وخبزي.

* * *

الرسالة الرابعة:

اكتبها بالمداد الأبيض، رسالتي اليك، لأننا، في هذا المكان، لا نُفَرِّق في الألوان.

وأكتب من خلف جدار الأبدية، وكنت قد بدأت الكتابة اليك، يا أرضي الغالية، لحظة وطأت قدماي تراب الغربة.

كنت أجلس في غرفة شاهقة من المباني ناطحات السحب، أحلم بك، وأكتب.

أتصورك شمساً تشرق من خلف السحب والضباب، وأكتب. أتخيلك صبية حلوة تقفز من بين الأمواج، وأكتب.

أحلم بك حصاناً حراً يعدو في رحابة السهول الخضراء، لا يتعب ولا يتوقف، فأكتب، وأرسم ... بكل الألوان رسمتك. وظلت أخبارك تأتيني من البعيد، حاملة الحزن والألم، حربا في أثر

http://nj180degree.com

حرب، واحتلالاً بعد احتلال؛ وتجمعنا الأخبار، نحن أولاد الغربة، فنتشاور، ونبحث عن وسيلة لإنقاذك، ثم نكتشف كم أننا عاجزون ...

من زمان ورسائلي تنشر في الصحف وفي المجلات: في الوطن وفي المهجر. ثم لم تلبث تلك الرسائل أن راحت تتوالد وتتكاثر، فطلع فوج من الكتّاب غيّروا مجاري الكلمات.

أو تذكرين، يا أرضي الطيبة، كم رواية سردت لك عنهم؟ وبكثير من الأمل، بقينا نتطلع الى يوم نعود فيه اليك، ونسترجع السيادة فلا نبقى مشردين، أبناء الشتات.

لا حاجة بي الى تذكيرك بذلك كله، فقد حفظت الدرس من زمان.

وبالأمس، وأنت تهبطين سلم الطائرة التي حملتك، كنت أراقبك من خلف الجدار المُضبّ، وأتوقع انتشار الخيبة فوق معالم وجهك. فالمدينة التي وصفتها في كتبي والصحف، وسميتها مدينة الجمال والحرية والطموح لم تعد كذلك، فقد تحوّلت (ويا لخيبة الأمل!) وصارت مدينة تقتل الانسان، وتغتال روح الجمال ونزعة الطموح. هذه المدينة عشقتها ذات يوم، من خلال تعلقي

بامرأة حرة ... وقد باتت اليوم مسخاً أخشى أن الفظ اسمه. يا ليتك لم تزوريها!... وبقيت في بالك، صورتها الأولى القديمة، وقد رسمتها ذات يوم فوق بطاقة معايدة.

وأنا سأظل أراقبك من خلف جدار الأبدية، وأبصر الخيبة، منتشرة فوق ملامح وجهك ... وفي مكان آخر، بعيد، يمكنني تأمل تلال الصنوبر تزنر قريتي، وحقولها مكتسية بالأخضر النضر، وثمة زهرة حمراء، من زهرات شقائق النعمان، تشق طريقها، بجرأة وصلابة، وجهها الى الشمس ومطلبها حياة جديدة تلوّح عند الأفق.

http://nj180degree.com

الوجه الآخر للقمر

بقي **كريم** بك **كريماً**، معززاً بين قومه، حتى جاءت تلك اللحظة، حين أعتلت ابنته **سمراء** المنبر، لتلقي كلمتها في المناسبة ...

والمناسبة مهرجان ضخم دعت اليه المؤسسات الاجتماعية، والجمعيات الخيرية، وللرجل عليها أياديه البيضاء وخيره الدافق منذ سنين.

امتلأت القاعة، على ضخامتها، بالمحتفلين، وحين وصل صاحب التكريم كانت تواكبه جمهرة من كبار الشخصيات، زحفت من كل المناطق، لكي تشارك العاصمة، بيروت، حفاوتها برجل المبرّات والمروءات.

جلس المحتفى به في الصف الأول، محاطاً بتلك الوجوه المعروفة، والتي من عادتها تصدّر الحضور، وفي كل المناسبات،

http://nj180degree.com

اتخذ الخطباء مقاعدهم فوق المنبر، وعزفت الموسيقى النشيد الوطني، تأكيداً على ان المناسبة تتخطى تكريم الفرد، لتعمّ الوطن، ميشعر الحضور بأن كل واحد منهم يلحقه شيء من ذلك التكريم.

* * *

أما كريم بك، والذي اعتاد مثل تلك المناسبة، فقد بدا في مقعده اليفاً، ساكناً، راضخاً لمشيئة الجماعة. وعندما صمتت الموسيقى إيذانا ببدء الكلام، تقدّم عريف الحفلة بخطى ثابتة، واثقة، فقبض بيده اليسرى على عنق «الميكروفون» بينما أمسكت اليد اليمنى ورقة خطابه، وراح صوته يهدر، وكأنه شلال منسكب من شاهق الذرى، ليصبّ في اعماق النفوس:

– أيها الحفل الكريم ... سيدي صاحب الأيادي البيضاء ...

اخذت النشوة تسري في النفوس، واشرأبّت الأسماع والعيون تلاحق الكلمات وأصداءها، تقدّر وتُقَوِّم، وتُبدي استعداداً واعياً للنقد فيما لو اختلّ الميزان، أو حادت كلمة عن جادة الصواب المتوقّع والمرتجى ....

و ...

– أيها السيدات والسادة أقدّم إليكم الآن شاعرنا الكبير، في قصيدة جديدة نظمها خصيصاً لهذه المناسبة الجليلة ...

ويا أيها الحفل الكريم: نستمع كلنا الى البلبل الغرّيد، مطرب الجماهير، في فاصل غنائي، شاء تقديمه الى صاحب التكريم، بعدها نستأنف الخطب، كما ورد في البرنامج في أيديكم و ...

– أيها الأصدقاء، أرجو الا تفوتكم فرصة مطالعة النصّ الوارد في البرنامج، وفيه اختصار لبعض مراحل حياة المحتفى به، وما حقّقه في عمره الزاخر بالعطاء.

* * *

روى الخطباء، وأسهبوا، عادوا بالمستمعين الى لحظة أطلّ الرجل على الدنيا، وأسمعوهم الصرخات الأولى لذلك الطفل المميز، وقد أدركوا فيها اختلافاً عما اعتادوا سماعه لحظات الولادة، وكأنما صراخه، منذ البدء، كان احتجاجاً على الظلم والفاقة والألم ... وكأنه، منذ تلك الومضة الأولى التي عانق بها وجوده، اتخذ قراره الحاسم، ليكون رجل الانقاذ، وغارس الفرح، مكان الحزن، والنشوة في مواطن الألم. وقد وهبه ربّه الكثير من خيرات دنياه، فعرف كيف يستفيد منها ويُفيد. فاذا بالألسن تشيد به، وتستفيض. ويتحوّل المديح الى سواعد ترفعه، وترتقي به يوماً بعد يوم، ليبلغ مراتب رفيعة لم يسبقه اليها إنسان، اذ لا أحد سواه أخذ على عاتقه تلك المسؤوليات الجسيمة في محيطه؛ وليس

http://nj180degree.com

ولم تكن **سمراء** جالسة بين الخطباء فوق المنبر، بل طلعت من صفوف الحضور، وليس من المقعد الأمامي، حتى ...

تقدّمت من «الميكروفون» بخطى ثابتة، ووقفت أمامه لحظات تجول بنظرها بين صفوف الجماهير المحتشدة في القاعة، قبل أن ينطلق صوتها، مثل قنبلة مفاجئة:

– أيها الحفل الكريم،

أتقدم، بالشكر الجزيل، بالأصالة عن نفسي، ونيابة عن سيدي الوالد، لحفاوتكم به، وأشادتكم بجهوده، وبعطائه وما تميّز به من عطف على الضعفاء، وأريحية وسخاء.

صحيح أن الوالد حقّق كل ما قلتم وأكثر، وأشرق على دنيا المغلَّبين مثلما يُطلّ البدر من أعالي الفضاء، لينير الدروب المظلمة. وجميعكم كنتم تشاهدون هذا الوجه المضيء وأنتم تعرفونه جيداً.

وبالحق شهدتم ونطقتم.

أما أنا، ابنته، فلي منه موقع مختلف، لا يمكن لأحدكم أن يبلغه أو يتعرّف اليه. وهو بالتمام، كالوجه الآخر للقمر. فاسمحوا لي، في كلمتي الموجزة، والمرتجلة هذه، أن أقدم اليكم بعضاً من ملامح ذلك الوجه.

* * *

هناك، عند حدود علمي، من يُعاكس هذه الحقيقة. وفي حين تختلف الآراء حول شتى الأشخاص، أو المواضيع، فانها جميعاً، تلتقي على تقدير الرجل، والاعتراف بمكارمه ...

ثم تلت الخطب الرنّانة، شهادات لمندوبي المؤسسات والجمعيات؛ بعدها، جاء دور الأطفال، من دور الأيتام، وقد أُعِدّت لهم أدوارهم، من رقص وأنشاد، وكلها تمجّد صاحب المبرّات و: .. «لولاك ما كنّا، يا فخر البلاد، وينبوع العطاء...».

ثم ارتقى المنبر ممثل رئيس البلاد، فتلا رسالة، هي تحية خاصة من الرئيس، لمناسبة تقليد كريم بك أرفع وسام في الدولة، ودعاه ليصعد المنبر، كي يعلّق على صدره ذلك الشرف الرفيع.

* * *

كان يمكن للاحتفال أن يتوقف عند هذا الحد، لولا الالتزام بالبرنامج الرسمي، والذي يقتضي أن تكون كلمة الختام للمحتفى به وبالفعل، غادر الرجل مقعده، وصعد الى المنبر، تتبعه العيون، وترفعه القلوب على إيقاع دقاتها، فشكر الجميع باختصار، ثم أعلن أن ابنته الحاضرة في القاعة، تطوّعت لتلقي، نيابة عنه، كلمة الختام.

http://nj180degree.com

هدأت القاعة، الا من أنفاس الشوق المُلحّ الى الآتي الموعود. وتسمّرت الأنظار فوق وجه سمراء، بل فوق شفتيها وهما تسردان حكاية الظلم والقهر والمعاناة، وقد عرفتها، مع أخوتها وأخواتها، وعلى يدي هذا الولد بالذات. فقد اعتبر الرجل أولاده متاعاً من جملة ما يقتنيه من أمتعة، أو ملكاً له، يتصرف بأرواحهم ونفوسهم وأجسادهم تصرّف المالك برزقه. لم يرحم طراوة طفولتهم، بل فجّر كل ما اختزنه في نفسه من جور وكره وعداء ... حتى اذا تعب من ضرب الصغار، تحوّلت يداه الى الكبار، وفي مقدمهم زوجته، النعجة الخاضعة الخاشعة، والمجرّدة من كل حول وقوة. وقد أسقطها الى مرتبة دون مستوى الحيوان، اذ تبقى لأنثى الحيوان قدرة الدفاع عن صغارها، على الأقل ...

– «أما أمّنا، فلم تكن تملك تلك القدرة، غير انها لم تشعر بأي نقص، اذ كانت تلك أحوال النساء في مجتمعنا، ولا تزال هذه الفئة من البشر رازحة تحت نير العبودية والمعاناة، لأن الظلم وقهر الأقربين يُعتبران من الأسرار العائلية، ومن العيب البوح بها ...

أيها السيدات والسادة:

ان هذا الرجل الذي أشفق على أيتام لم تشاهدهم عيناه، وحنّ قلبه، فقدّم تبرّعاته السخيّة الى مؤسسات لا يحفظ اسماءها، كان

يبخل، في الوقت ذاته، على أبنائه وبناته، ولا يجود عليهم حتى بابتسامة، ويعتبر ذلك من وجوه التربية الصالحة!... وفي رأيه، كلما قهرت النفس والجسد، قويت الشخصية، واكتسبت مناعة، أما قهر الزوجة، فكان يجد فيه متعة وانتصاراً، ومانعاً من التعثّر والسقوط في المعصية.

أيها الحضور الكرام:

ان أبي، رجل الاعمال الناجح، جمع في حياته، من الثروات، ما لا تحصيه دفاتره... وهو أعجز من أن يحيط بماله في هذه الدنيا.

أما نحن، وأعني أخوتي وأخواتي وأنا، فقد عشنا في كنفه حياة الحرمان، وعرفنا معنى الجوع، لا الى الحنان، وحسب، بل والى الخبز أيضاً.

لقد شاءنا هذا الأب أن نتذوق بؤس الدنيا، بكل ألوانه، حتى نُقدّر، (كما كان يردّد ويُعيد) معنى النعمة والعيش الكريم. وبالطبع لم نكن نجرؤ على الوقوف في وجهه، وكيف لنا أن نفعل ذلك وأمّنا في صفّ المهزومين؟... وكيف نفعل وأجسامنا في طراوة التكوين الأول؟... حتى اذا كبرنا، وصلبت ارادتنا رحنا

http://nj180degree.com

نغادره الى غير رجعة، وأيقظنا، ببعدنا عنه، لظى حقده وغضبه. لكنه بات عاجزاً عن بلوغ مواقعنا، فقد حفرنا نفقاً، امتدّ من ظلام أقبية سجنه، باتجاه النور والحريّة.

أيها الحفل الكريم:

حين اقترحت على الوالد، أن ألقي كلمتي هذه، نيابة عنه، وافق، من دون تردّد. وربما حدس أن كلمتي لن تكون عادية، أو مألوفة، فهو رجل حكيم، ويعلم أن «من يغرس الريح يحصد العاصفة». كما يقول المثل.

ومثلما التقيتم اليوم لتتذكروا هباته، وعطاياه، وتعددوا صفاته ومكرماته، فقد رأيت من العدالة أن أحافظ على التوازن، لكي نقدّم الشخص، من كل وجوهه.

أما أنت، يا سيدي، وسبب وجودي في هذه الدنيا، فأرجو أن تقبل اعتذاري، لأنك علّمتنا أن لا جور أقسى من طمس الحقيقة، وللحقيقة، في حوار العمر، بيننا، أكثر من وجه واحد» ...

* * *

توقفت سمراء عند هذا الحد، وراحت تهبط الدرجات القليلة، بين المنبر والقاعة، ثم تابعت سيرها، من دون أن تلتفت ناحية

أبيها، وظلّت تمشي، مغتنمة فسحة الخبل الذي سيطر على القاعة، بكل من فيها، نتيجة الصدمة المفاجئة. وظلت سمراء تمشي حتى تجاوزت الباب، وتوارت بعيداً في ظلام الشارع، ولم يتحرك أحد من الحضور، أو من المسؤولين عن تنظيم المهرجان، ليعترضها، أو يرد عليها بكلمة دفاع ...

أما المحتفى به، فقد لبث في مقعده، ولم تتبدّل تعابير وجهه، وكأنما كلام ابنته جاءه في لحظة تحتاج فيها النفس الى التطهير عن طريق جلد الجسد والروح معاً، أو الاعتراف الصريح بالأخطاء، وبالخطايا.

* * *

تقدّم منظّمو المهرجان من الرجل، وأحاطوه بطوق من الاهتمام والمؤاساة. وأطلقوا صفات اللوم على الابنة، واتهموها بالجحود، بل أن بعضهم مضى الى القول: «ان الفتاة واقعة تحت تأثير مخدّر»، وآخرون، من المؤمنين المتشدّدين، راحوا يؤكدون أن الذي تكلم لم يكن سمراء، ابنة هذا الرجل العظيم، بل انه الشيطان يطغى، ويوسوس في بعض أحوال الضعف البشري، فتنفتح امامه الأبواب والقلوب قسراً عنها:

http://nj180degree.com

– «نعم، كان كل ما سمعناه، يا سيدنا الكريم، من وحي الوسواس الخنّاس. وهذا ما يجب أن تعلمه، وتصدّقه، اذ يصعب القول أن مثل هذا الكلام يخرج من فم الإبنة الطيبة **سمراء**.»

* * *

قيل هذا الكلام، وكثير سواه. وكريم بك ساكن، لا يبدي حركة. وقسمات وجهه تنمّ عن هدوء عجيب، وسلام داخلي غير أرضي. وكانوا ينتظرونه أن يغضب، أو يثور ويغادر القاعة، أو ينهض ليحتج، ويُنزل الإبنة عن المنبر ويُعلن على الملأ حقيقتها: الفتاة العاصية، العاقّة.

لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك كله، بل لم يتحرّك أو ينهض عن مقعده، كما لم يمدّ يده للأيدي العديدة التي امتدت، تنتشله من وهدة سقوطه، في اعماق البئر، وقد حدث ذلك السقوط لحظة اصطدمت نظراته بنظرات ابنته، وقرأ كل ما توقع أن تقوله، ثم تلاشى.

* * *

على مقربة من مقعد المحتفى به جلس طبيبه الخاص، وكانت يده من جملة الأيدي التي امتدت، لا لتصافح الرجل، بل لتجسّ نبضاً كان قد فارقه لحظة بدأت الابنة تلقي خطابها.

الجدار

أشعر الآن، وبعد كل تلك اللقاءات غير المقصودة، مع «الجدار»، انه حان الوقت لأسجل الذكريات والأحداث التي بدات عام ١٩٨٩، وبكل الصدق والواقعية بعيداً عن السرد الروائي او الخيالي.

في تلك السنة، كنت أتنقل بين القاهرة وبيروت، بحسب ما تسمح لي ظروف الحرب وأوضاع العائلة، وكانت قد انتقلت من الإقامة الدائمة، في الوطن، لتنتشر في شتى بقاع الأرض.

ذات يوم، فوجئت بدعوة الى حضور ندوة أدبية، تنعقد في برلين، تحت العنوان الكبير لمهرجان الفنون «آفاق ١٩٨٩».

لن أعود الى أجواء المؤتمر، والفرص العديدة التي أتاحها لي، كي ألتقي كتاباً عرباً، يندر أن نلتقيهم في بلادهم ... بلادنا. فقد فات أوان الكلام عن ذلك المؤتمر، انما عودتي الى تلك النقطة

http://nj180degree.com

وذلك التاريخ، بالذات، هي بسبب «الجدار» ... ولكي أكتب عن «الجدار»، وكان لا يزال قائماً، بكل الأبهة والعظمة والقهر والعنت، بين شقي مدينة «برلين»، الشرقي والغربي.

وكان جدار آخر، وإن ذهنيا، يرتفع في حينه، بين شطري بيروت، الشرقي والغربي. وقدرت أن صديقنا المستشرق الذي دعاني الى تلك المواجهة، شاءني أن أجري مقارنة، وربما أتعزى لكوننا لسنا الوحيدين الذين يعانون من انشطار مدينتهم. وكان برفقتنا بعض الزملاء العرب، ولاحظتهم يتأملون الجدار، من فوق تلك الشرفة العالية، في مطعم أعلى الأبراج المشرفة على الحدود، مثلما يتفرج أي سائح على معالم غريبة وطريفة، قد يكون سمع أو قرأ عنها في كتب التاريخ والجغرافيا، وها أنه يبصرها بأم العين.

أما بالنسبة الي، فقد كان الأمر مختلفا: وحالما اتجهنا الى المنطقة المعزولة بين الشطرين، شعرت بأني انتقل ذهنياً، الى منطقة أخرى تقع بين المتحف و «البربير»، والناس يزحفون، فرادى وجماعات، وفي كلا الاتجاهين، حاملين ما أمكن حمله من الأمتعة، حقائب السفر، أو ربطات الخبز ... وعدت أتذكر كم مرة جرجرت قدمي للعبور، وعادت الى عيني صور المواطنين البائسين، تضطرهم أعمالهم أو واجبات حياتية طارئة، الى الانتقال، وفي طريقهم، ينقلون

الحاجات... وكان لرغيف الخبز الأفضلية، وأحياناً، كنت أبصر المسلحين ينتزعونه من بين يدي أرملة تنفيذاً لقرار المنع ...

لذلك كله، لم تفرحني الألوان الزاهية، المرسومة فوق الجدار، ومن جهته الغربية فقط ... ولا تمكنت من قراءة روح الدعابة المقصود بها تخفيف الضنك والقهر. وكل ما كان يتراءى لعيني، هو شكل الجدار ووظيفته حاجزاً بين جهتين. وقد ازدادت كثافته وضغطه على ضميري، حين دعينا في اليوم التالي، الى العبور من «برلين» الغربية، حيث انعقد المؤتمر، الى الجهة الشرقية، حيث تقيم صديقتي المستشرقة «دوريس» وعائلتها.

وأذكر كيف توقفت السيارة أمام المعبر الضيق، وقد اصطلحوا على تسميته «نقطة عبور تشارلي» والتسمية للقوات الأميركية وقد ظلت مرابطة هناك في أعقاب الحرب العالمية الثانية. تلك التسمية ذكرتني باسم آخر، ومن ابداع القوات الأميركية ايضاً، والتي تمركزت على كورنيش البحر في بيروت أمام مقر السفارة الأميركية في إثر تفجيرها. وكانت لها هناك نقطة مرور، وكوخ حراسة رفعت عليه يافطة تحمل اسم ذلك الكوخ «البيت الصغير على الكورنيش»، وكان بيتاً موقتاً، ومبنياً من طوب الاسمنت.

* * *

http://nj180degree.com

أعود الى «نقطة عبور تشارلي» وقد سجلت الحدث في مفكرتي، من دون أن أغفل المعاملة الخاصة التي جعلتنا نتجاوز «الطابور» الطويل ونجتاز المسافة في بضع دقائق بدلاً من الانتظار الطويل. وقد نبهونا كي نستخدم المعبر ذاته، في طريق العودة. ولذلك لم يتمكن سائق سفيرنا آنذاك في الجهة الشرقية، من نقلنا في السيارة الدبلوماسية التي تكرَّم بها سعادة السفير.

* * *

من الملاحظات، التي سجلتها الذاكرة الفرق الشاسع في مظاهر الحركة والعمران بين شطري المدينة الواحدة، ففي الغربية تجد النشاط والمرح والبحبوحة الاقتصادية، وفي الشرقية الصمت والهدوء، يزيدهما إقبال الليل غموضاً. ولم أكن أدرك في حينه أن تلك كانت فرصتي الأخيرة لأشاهد الجدار، وأعبره مثلما يعبره يومياً سكان المدينة المشطورة، اذ لم يلبث أن اتخذ القرار بهدمه وازالته من الوجود ... وعندما دعيت من جديد الى ندوة أدبية عقدت بعد سنة من تاريخ انهيار الجدار، طلبت من منظمي الندوة أن تتاح لي الفرصة لأزور ذلك المكان.

* * *

أين الجدار؟

نعم، كان هذا السؤال يراودني، مثلما قرأته في عيون الناس، وهم يعبرون ما أصبح فاصلاً وهمياً وذكرى. لقد زال الجدار نهائياً، واختفت آثاره مثل السحر، ولم يَبْقَ منه سوى قطع صغيرة ملونة، من جانب واحد، هو الجانب الغربي طبعاً، وقد وضعت داخل اطار وباتت تذكاراً أثريًّا، يعطى للضيوف أو يشتريه السياح. وقد حصلت على قطعة صغيرة، قبل العودة وكانت هدية من منظمي الندوة، ولا تزال معروضة بين ذكريات حملتها من بعض رحلاتي. ولم يخطر في بالي أن الباعة، في المناطق السياحية، لن يفوتوا عليهم تلك الفرصة التاريخية، فيحولون قطع الاسمنت الى سلع سياحية يحملها الزوار الى بلادهم.

* * *

وها انا اعود اليوم، وبعد انقضاء سنين على تلك الزيارة الأخيرة، اعود الى «برلين» للمشاركة في «ورشة عمل» أدبية. ومن جديد أتيحت لي فرصة زيارة المدينة الشاسعة، وبرفقة خبيرة في معالمها، وبرغم كونها نمساوية فان الكاتبة المسرحية «مارلين ستريروفتش» تعتبر برلين مدينتها، حيث تقدم مسرحياتها تماماً كما تقدم في «فيينا». وقد تطوعت لتكون دليلة لوفد الكاتبات

http://nj180degree.com

القادمات من خارج أوروبا، وكنت واحدة منهن. بعد جولة تسكعية في «ساحة ألكسندر» قادتنا الى الجهة التي رسمت فوقها ذات يوم خطوط جدار شق المدينة الى شطرين:

– تعالوا نبحث عن آثار «الجدار».

قالت، وهي تقودنا، ونحن نجد السير في أثرها. وعبثاً كان بحثنا، لقد أزيلت المعالم نهائياً، وكل ما بقي من «الجدار» هو ما سجلته الذاكرة الجماعية، وما تستغله جمهرة من باعة التذكارات الرخيصة وقد انتظم أفرادها في صفوف، فوق الأرصفة، يبيعون بقايا آثار الذاكرة، وقد اختلط بينهم الألماني بالروسي والتركي والكردي والعربي، وأخيراً، وليس آخراً، بالبوسني ... أما البضاعة المعروضة، فتتراوح بين قبعات فرو قديمة، ترتديها عادة السيدات الروسيات، أو الجنود، وهناك السبحات والعقود المفروض أن تكون مصنوعة من العنبر، لكن مرافقتنا نبّهت الى الغش السياحي وهذه قد تكون تقليداً للعنبر، لكنها مصنوعة من البلاستيك الرخيص.

وكانت هناك بطاقات تذكارية عن صور فوتوغرافية أخذت للجدار قبل انهياره، اخترت بطاقتي، ونقدت البائع ثمنها، وكنت افكر في أنها سوف تنسجم مع القطعة التذكارية، المحفوظة لدي منذ سبع سنوات.

لاحظت تنويعاً جديداً في البطاقات، فبدل الصورة الفوتوغرافية، اختيرت قطعة صغيرة من الاسمنت، لون وجه منها وألصقت على البطاقة وقد كتب تحتها: «من بقايا الجدار».

– أو تكون أصلية؟

سألت «مارلين»، فابتسمت وقالت:

– ربما. ولكن من يمكنه تأكيد ذلك؟ تجار التذكارات السياحية أذكياء، ويتمتعون بطاقة كبيرة من الإبداع ...

قلت موافقة:

– هذا صحيح، لكن تبقى مع الزائر، بعد أن يغادر المكان، مجموعة المشاهد المسجلة في الذاكرة، وهي الأبقى.

* * *

وللكلام على الجدار وجوه أخرى، طالعني واحد منها في اثناء انعقاد المؤتمر الأخير (منتصف شهر أيار/مايو ١٩٩٧) في ليلة الافتتاح. كان من الطبيعي أن نلتقي الكتاب المشاركين في الندوة، وكانوا في معظمهم من دول أوروبا، عدا ثلاث كاتبات دعين من الخارج، وكنت احداهن. ويمكنني القول إننا بقينا خارجاً في بعض الندوات المفتوحة على الغد، والتحولات العلمية، وما ينتظر

http://nj180degree.com

الإنسان بعد مقلب الألفين، وكثر الكلام عن الاستنساخ وموقف المرأة من «الاكتشاف» الجديد. قالت الزميلة الأفريقية بغضب: «إنكم تنقلوننا الى أدب الخيال العلمي، وما يمكن أن يتفرّع عنه، أما نحن، فما زلنا غارقين في مشاكلنا الانسانية: الجوع، التلوث، المرض وفقر الشعوب في الدول الغنية بمواردها ... دول أفريقيا، مثلا ...

* * *

لكن حديث الرجل الذي اقترب مني، مرحبا، أعادني الى قصة «الجدار»:

– «قفزت فوق الجدار»، قال ذلك وكرر: «في العام ١٩٨٨ غامرت وقفزت من فوق الجدار».

للوهلة الأولى، حسبته يهذي، أو يتابع حديثاً بدأه مع سواي، أو أنه يستخدم التورية والرموز ليقول شيئاً آخر. لكنه أصر على تلك العبارة. وقبل أن أدرك قصده، شطح فكري باتجاه تشعبات عدة قد تتفرع عن هذا الكلام، ورحت أتساءل: أتراه يقصد الجدار المادي، يبنيه الإنسان ليحدد كيانه، وعن طريقه يضع للآخرين حدودهم؟

أم انه الجدار المعنوي يرفعه لبنة لبنة، وحجراً حجراً، في مسيرة عمره، وكلما كبر يوماً ازداد البناء قسوة وصلابة؟... أم أنه الحدود، بين دولة وجارتها، حتى اذا تعرضت لهزة، أو نقر أحدهم بابها، اهتز الكون وأعلنت الحروب واندلعت نيرانها؟...

لكن الرجل لم يدعني أمضي في تساؤلي، وقد عادت عبارته تطرق سمعي، وكأنه، بقوله: «قفزت من فوق الجدار»، كان يقدم نفسه، ويختصر صفاته، فهو ليس الكاتب فلان، أو الفنان أو الشاعر أو العالم، بل هو «الرجل الذي قفز من فوق الجدار».

* * *

فيما بعد، وبعدما فهمت قصده وسمعت بقية الحكاية، رويت الخبر لمرافقنا، الشاب الهادئ الخجول، «ديتما»، فقال باختصار:

– المهم متى حدث ذلك؟ إنّ تاريخ القفز مهم جدّاً ...

لكن الرجل حدد التاريخ، وقال انه فعل ذلك قبل أن يهدم الجدار، وحين كان بعض الشبان، يغامرون بحياتهم ويقفزون ودائماً من الجهة الشرقية باتجاه الغربية، قاصدين نسمات حرية، وأشياء أخرى لم يكن يوفرها النظام.

* * *

http://nj180degree.com

... «القفزة» الكبرى لم تحصل بعد، وينتظرها الناس، وهم ... المشاكل الاجتماعية التي ظهرت في أعقاب نسف جدار ... فبعد فورة الحماسة الأولى، وبعدما تفرق شمل اللقاءات ... فتحوا أعينهم ووعيهم على نهوض مشاكل عديدة سببها ... الجديد. ومنذ سنين، هم يحاولون مواجهة تلك المشاكل ... ولا يزال هناك «مشوار» طويل، ذلك أن انهيار جدران ... لا يعني بالضرورة ازالة جدر غير منظورة، رفعت أيام ... والفرقة، واختلاف الأنظمة ... لكن ورشة البناء قائمة، وفي ... من مجال ...

أسود وأبيض

قبل تلك الرحلة، لم يكن يخطر في بالي، ولو من قبيل العبث أو السلوى، أن أقف أمام المرآة، واتأمل وجهي فيها، لأتأكد من لون بشرتي. فالمرء يولد في جلد يخصه هو، مثلما يولد في عائلة اليها ينتمي، أو مذهب ورثه عن آبائه وأجداده، ومن شدة التصاقه به، يعتاده حتى يصبح جزءاً من كيانه اللاواعي.

وقد يبدل هذا المرء اسم العائلة والانتماء الاجتماعي، أو قد يخرج من مذهبه، ويتنكر له ... أما جلده فكيف السبيل الى انتزاع كيانه منه، وسلخه عن وعيه واللاوعي؟

* * *

يبتسم جهابذة التجميل المعاصرون، ابتسامة سخرية، ويلفتونني الى العجائب، بل المعجزات، التي تحققها أساليب التحويل والتبديل، في الشكل واللون. تشير أصبع أحدهم الى وجه النجم

http://nj180degree.com

الشهير «مايكل جاكسون» ويلفظ كلمة «بليتش» ومعناها بالعربي الفصيح «التبييض» أو «التقصير» أي تحويل الأسود الى أبيض. ولا يستفيض في الشرح معتمدا على سرعة ادراكي. وثمة أصبع ثانية تومئ باتجاه الشاطئ، أو صالونات «البرونزاج» الصناعي، حيث تسلط على الجسم أشعة تعادل في قوتها، قوة الطاقة الشمسية، بل وقد تتجاوز مفعولها. وهذا هو السر الكامن وراء بقاء الأجسام الشقراء، في البلاد الشمالية «محمرة مقمرة» طوال فصول الصقيع وغياب الشمس عن ديارهن.

* * *

لكن ذلك كله يبقى خارج مدار بحثي وتفكيري، فكلامي عن الطبيعي من السلوك والمخلوقات، والبشر الذين يولدون داخل جلود تسم حياتهم وكيانهم، فهذا أبيض وذاك أسود أو أصفر أو أحمر أو أسمر أو أشقر ... وربما حصل تمازج الألوان عن طريق الزواج والولادة. (ولا أقول الاستنساخ، اذ أن النسخة، مثلما أعلمونا، تجيء طبق الأصل وعلى مثال صاحبها المستنسخ عنه تماماً).

وفي كتب الجغرافيا، كانوا يدرسوننا أنساب البشر، وتحديد شعوب الأرض، بألوان سكانها.

وفي يقيني أن «حدود اللون» ظلت جامدة، طوال الفترة الزمنية التي سبقت اكتشاف المواصلات، حتى اخترع الانسان الآلة، تسير به وتطير، أو تمخر عباب البحار، وتنطلق مثل اسهم الظنون عابرة الأكوان، فلا تترك سرا من أسرار الكون الا ونبشته ...

أقول: ما كاد يحصل هذا التغيير المزلزل، حتى اختلطت الشعوب، وتعرفنا الى ألوان «البين بين». انما هناك قارات ودول، بقيت قابعة في عزلة جلودها وألوانها، ولم تتخالط مع مرور الزمن، بل ظلت معرفتها للآخر تزيدها التصاقاً بكيانها، وبألوان جلودها.

* * *

وذات يوم، قدر لي أن أزور عاصمة من عواصم تلك الدول الشديدة المحافظة على أصولها وفروعها ونقاء لون أهليها، فهي لم تسمح، على مدى تاريخها الطويل، بأن تتسرب اليها ألوان مغايرة للونها الأصيل ... أقول لم تسمح وفي عصرنا الحاضر، أية قوة في وسعها أن تسد الثغور المفتوحة على الكون؟... فالآخر قد يهبط في مطار أي دولة، لاجئاً من حروب أو ثورات. ولأنها مرتبطة بقوانينها الملتزمة بدورها حماية المضطهدين، فلا تقوى حكومات تلك الدول على طرد الغرباء، بل تجد نفسها مضطرة، بفضل قوانين انسانية هي اختارتها وكفلتها، الى ايواء اللاجئين وتأمين

http://nj180degree.com

الحياة الكريمة والرعاية السليمة، ريثما يستتب الأمن في ديار هجروها، ويصبح في وسعهم الرجوع اليها من دون أن يتعرضوا الى خطر الإبادة الجماعية ... وهم، في معظم الحالات، لا يرجعون.

ولن أسرد هنا، الحكايات الهامشية التي تُروى عما يحدث فعلاً، بين تلك الدول واللاجئين اليها، حاملين معهم تجاربهم القاسية، وارهاب سلطاتهم، فيحولونها الى واسطة للاستغلال وانتهاز الفرص وخصوصاً استغلال طيبة القلوب الرحيمة وقوانين الرعاية الانسانية!...

وان لسلوكهم هذا حكايات لا تنتهي.

* * *

لكن السيدة القادمة من أعماق القارة السوداء للمشاركة في المؤتمر، لم تكن هناك بقصد اللجوء، ولا كانت رفيقتها الكاتبة الابنوسية القَص، العنبرية الأسلوب ...

كانتا، هناك، مثلي، بدعوة للمشاركة في ندوة حول الكتابة حين تتحول الى شهادة، وكتابة جسد المرأة عندما تستهدفه الحروب وحركات التسلط والعنف.

* * *

ولكن، ما بال الزميلة السوداء ترتعد خوفاً؟

ما بالها، وهي التي تضمر من كلامها، وبين سطورها، أكثر مما تجهر به ... ما بالها لا تنفك تعبر عن الخوف، وبالصوت العالي. وتقحم الحديث عن الأسود والأبيض عند كل محطة كلام؟!... فالخوف يتسلل عبر حديثها، في الوعي، وأحياناً كثيرة، في اللاوعي.

وبالفعل، روت لي أنها باتت تشعر بالخوف حتى في أحلامها.

أصابتني الحيرة، حيالها، ولم أعد أفهمها، وجدتها تبالغ، اذ لم يكن هناك سبب بارز من أسباب الخوف، فالناس لطفاء متحضرون، وهي ضيفة مكرمة، فعلامَ الخوف إذاً؟...

ولكي أفهمها، تابعت اصغائي اليها، وعمقت الصحبة بحوارات تبادلنا من خلالها معلومات عن بلدينا. وعلى مدى أيام المؤتمر، ومن خلال هاتين الرفيقتين، عشت تجربة جديدة، لم يسبق أن واجهتني في ما قمت به من رحلات.

* * *

الأسود أرتاح اليه، بل أكاد أقول انه لوني المفضل في اللباس، يمنحني الهدوء، ويرحل بي بعيداً في الأعماق. والأسود، في

http://nj180degree.com

... معا، لباس الحداد والأرامل، لكن الفتيات الصغيرات، في ... يفضلنه أحياناً على الألوان الزاهية. وقد عجبت ذات ... حين أقبلت حفيدتي الطفلة، ابنة السنوات الخمس، على ... ثوب أسود، من بين سائر الألوان الزاهية المعروضة في ... الواجهة. وعندما حاولت أمها أن تلفتها الى جمال الألوان المرحة ... باءت بالفشل. وخرجت الصغيرة من المخزن، تغمر ثوبها المخملي الأسود بين ذراعيها، وتكاد تطير فرحا به. ولم يكن سهلاً عليها أن تشرح لنا، نحن الكبار غليظي الذهن، على أي أساس تم اختيارها.

كذلك، كان صعباً علينا فهم ما قامت به شقيقتها (التوأم) ذات يوم، وهي تلهو بالدمية الشقراء الشعر والبشرة. فقد فاجأتُها تُمسك بالقلم البني من بين الألوان جميعها، وتلوّن به وجه دميتها وكل المعالم البارزة من جسمها.

- لماذا؟

سألتها، فابتسمت تُخفي ارتباكها ولم تردّ عليّ. وحين كرّرت السؤال قالت:

- لكي تصبح مثل «كالا».

و «كالا» هي الفتاة السمراء الحبشية التي تعمل وتعيش معنا.

ولم أحمل السؤال الى علماء النفس ليشرحوا لي معنى ذلك. فقد كنت أعلم تماماً مدى العلاقة العذبة التي نشأت بين الطفلة وتلك الأم المنقطعة عن أولادها، وبحدس الطفولة الذي لا يُخطئ، كان تبادل الحب والمعاملة، وتحويل الدمية الشقراء المفضّلة، الى اللون المختار والقريب من حدود العاطفة.

* * *

لكن هذه القصة المعترضة، تبقى خارج مدار بحثي، اذ كان همّي ان أعرف أين هو مصدر الخوف المستحوذ على شعور الزميلة الأفريقية الى درجة قريبة من عقدة الاضطهاد:

- لكننا، فعلا، مُضطهدون ...

هكذا جاء جوابها، واقفاً وحده، ومن دون دعم البراهين، ثم تابعت:

- ماذا تعرفين، أنت، عن الخوف الراسخ في العظام، المتململ مع قطرات الدماء، في عروقنا؟

- ولكنك في بلد حضاري، يدين بدين الانسان ويراعي حقوقه ...

http://nj180degree.com

راحت تهزّ رأسها بصبر الكبار حين تواجههم سذاجة الأطفال:

– اسمعي لأحكي لك. تريدين أن تعلمي أين مصدر هذا الخوف، والذي تفضّلت وقلت أنه يقرّبني من جنون الاضطهاد؟... صحيح، ما قلت. نحن في بلد متمدّن، ويرعى حقوق الانسان، لكن صحفه تطالعني يومياً بأنباء يقشعرّ لها البدن، عن أعمال عنف يقوم بها متطرفون، ويوجّهونها الى كل من لا يدخل في معادلاتهم الوصفية. وبالطبع، نحن الأفريقيين خارج تلك المعادلة، وأنتم، وكل من نبت فوق رأسه شعر أسود. والشيء ذاته يجري اليوم، في الجانب الآخر، أي في بعض دول أفريقيا: فهم يطاردون البيض، وينتقمون منهم، ربما بسبب ظلم تلقّوه من أسلافهم الروّاد الأول. من يدري؟... أما أنا، فلم يكن في مقدوري أن أظلم أحداً، بل على العكس، فقد خرجت من بلدي شبه مطرودة ولجأت الى بلد حرّ ... الى أميركا. تعلمين كيف تستقبلك نيويورك وتمثال الحرية البرّاق، يُطل من فوق اعلى شرفاتها، مرحّبا بالقادمين ... قلت لنفسي الخائرة: «هنا تُحفظ حقوقك الانسانية على الأقل، ويجد أولادك فرصة للعلم والعمل، فأنت في أميركا، وقد عرفناها في الماضي، وسمعنا عنها، بلد حرية وأبوابها مشرعة في وجوه الطامحين» ... ويا للخيبة وتهافت

الأحلام؟!... ما كدت أفهم حقائبي، حتى أكتشفت أن ما في داخلها من اشياء ثمينة، نجوت بها من سرقات وطني، قد أختفت في الطريق. وعلمت، متأخرة، بأن الوسائل الحديثة لتصوير ما في داخل الحقائب بواسطة الأشعة، ليس هدفه ما قد يكون في داخل تلك الحقائب من أسلحة، بل وما فيها من اشياء ثمينة. وهكذا وجدتني شبه معدمة الا من ورقة وعد صغيرة هي عقد عملي، في احدى الجامعات ... وقلت: «هنا، ابدأ من جديد، وعليّ أن أنسى الماضي وآلامه». ولم يطل بي الوقت قبل أن أكتشف، ويا لسذاجتي، أن الأشياء الطافية فوق سطح العلاقات البشرية، خادعة، بل كاذبة، والاختلاط والتعاون بين الأسود والأبيض، يتحقق في أفلام الدعاية والمسلسلات التجارية فقط، أما في الواقع، فالحرب معلنة بعمق. وقد بلغني ذلك عن طريق ابني، ابن العشرين ربيعاً، وهو طالب في جامعة كبرى، متفوّق، وحسن السلوك، لكن الجامعة ليست المجتمع وبالتأكيد، تختلف فيها العلاقات الانسانية، لكن ما ان يخرج الطالب الى الشارع حتى تتلقفه الشرطة، وليس بسبب مخالفة، أو أذى، بل بسبب اختلاف لونه. مرّتين تعرّض للضرب، وأُنقذ بأعجوبة مما هو أعنف. لكن التجربة كانت كافية لتبقيني في حال من الذعر

http://nj180degree.com

والترقّب ... لا أنكر أن بين السود من يتجاوز القوانين، ويُسيء السلوك، ولكن، كيف يؤخذ الأبرياء بجرم المذنبين؟... عن أية ديموقراطية نحكي؟...

* * *

والآن، هي خائفة، رفيقتي الأفريقية الذكية واللطيفة، خائفة؛ تتأمل المحيطين بها، في القاعة وتتقلص داخل جلدها. وكان ذلك شأنها كلما خرجنا معا، من «حمى» قاعة المؤتمر.

وقد أدركت معنى خوفها، والعيون تنصبّ على الركن الذي اخترناه، في تلك الصبيحة، ونحن نجلس الى مائدة الفطور. وكانت العيون تسجّل الصدمة، والتساؤل:

– لماذا ... هذه ... هنا؟

ومن تكون؟...

* * *

كان موعد سفري قبلها ببضع ساعات ورفيقتها الأفريقية غادرت مع الفجر، فوجدتها وقد حزمت حقيبتها، ووقفت أمام باب غرفتي، بانتظار السائق الذي سينقلنا الى المطار:

– أُفضل الانتظار بضع ساعات، في قاعة المطار، على أن أبقى هنا، وحدي، غارقة في وساوس قلقي.

لم أعترض أو أُعلّق على قرارها. فقد بدأت أفهم قليلاً لغة العيون المتسائلة. والعين تتقن لغة العنف والتهديد، في كثير من الأحيان.

http://nj180degree.com

فهرس

الإسكيمو (١) ٥
الإسكيمو (٢) ٢١
حكيم عيون ٣٥
صبي الدكان ٤٥
حوارية ٦١
بطاقة معايدة ٧١
رحلة فوق النيل .... والصور متقاطعة ٨١
اللص ! ٩٥
رهان الفراشات ١٠٩
خط الرجاء ١٢٥
أربع رسائل حنين ١٣٩
الوجه الآخر للقمر ١٥١
الجدار ١٦١
أسود وأبيض ١٧١

للمؤلفة :

روايات : طيور أيلول
شجرة الدفلى
الرهينة
تلك الذكريات
الباهرة
الإقلاع عكس الزمن
الجمر العاقر
يوميات هر
على بساط الثلج

مجموعات قصصية :

جزيرة الوهم
الينبوع
المرأة في ١٧ قصة
الطاحونة الضائعة
خبزنا اليومي
محطات الرحيل
روت لي الأيام
الليالي العجرية

سيرة : نساء رائدات : (من الشرق ومن الغرب) في ستة أجزاء
في البال

أعمال مترجمة :

إلى الانكليزية :
Flight Against Time
A House Not Her Own
Fantastic Strokes of Imagination

إلى الألمانية :
September Vögel
Flug gegen die Zeit
Das Pfand
Kater Ziku

إلى الدانماركية :
Rejse Mode Tiden

إلى الهولندية :
Dag boek Van Een Poes